غير مرخصة للطباعة

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

المجلد السابع والثلاثون

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

غير مرخصة للطباعة

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

غير مرخصة للطباعة

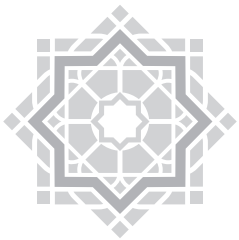

المِحْوَرُ الثَّالِثُ

الفِقْهُ وَأُصُولُهُ

فِقْهُ السُّلُوكِ وَالأَخْلَاقِ

٧٧ الحياة الرَّبَّانيَّة والعِلم

٧٨ النيَّة والإخلاص

٧٩ التَّوكُّل

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِي

غير مرخصة للطباعة

المحور الثالث

الفقه وأصوله

(فقه السلوك والأخلاق)

٧٧

الحياة الرَّبَّانيَّة والعِلم

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية

من الدستور الإلهي للبشرية

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۞ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۞ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

﴿ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الحج: ٥٤].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن زيدِ بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خيرُ مَنْ زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها، اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من علمٍ لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن دعوةٍ لا يُستجاب لها**». رواه مسلم.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ قال: مَنْ عادى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحببْتُه: كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصرُ به، ويدَه التي يبطشُ بها، ورِجْلَه التي يمشي بها، وإنَّ سألني لأُعْطِيَنَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما تردَّدْتُ عن شيءٍ أنا فاعله تردُّدِي عن نفسِ المؤمن، يكرهُ الموتَ وأنا أكرهُ مساءته**». رواه البخاري.

عن عطيَّة السَّعْدي قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يبلغُ العبدُ أنْ يكون من المتَّقين حتَّى يَدَع ما لا بأسَ به حذرًا لما به البأس**». رواه الترمذي.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ يأخذُ عنِّي هؤلاء الكلماتِ فيعملُ بهنَّ أو يعلم من يعمل بهنَّ؟**». فقال أبو هريرة: فقلت: أنا، يا رسول الله. فأخذ بيدي فعدَّ خمسًا، وقال: «**اتَّقِ المحارم تكُنْ أعبدَ الناس، وارضَ بما قسم الله لك تكُنْ أغنى الناس، وأحسِنْ إلى جارك تكنْ مؤمنًا، وأَحِبَّ للنَّاس ما تحبُّ لنفسِكَ تكنْ مسلمًا، ولا تُكْثِرِ الضحكَ؛ فإنَّ كثرةَ الضحك تميتُ القلب**». رواه أحمد والترمذي.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الموضوع

الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحـــات، وبفضله تتنزَّل الخيرات، وبتوفيقه تتحقَّـــق الغايات، الذي هدانا لهذا، وما كنَّـــا لنهتدي لولا أنْ هدانا الله، والصلاة والسَّلام على البشير النَّذير، والسراج المنير، سيدنا وإمامنا، وأُسوتنا وحبيبنا محمد، وعلى آله وصحبه ومَن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

(أما بعد)

فقد تعرَّفت على التصوُّف مبكِّرًا عن طريـــق كتبه، وعن طريق أحد أعلامه، وهو الإمام أبو حامد الغزالي الذي أعتبره شيخي الأوَّل، رضي الله عنه.

كنتُ في الخامسة عشر من عمري، بعد أنْ أنهيتُ السَّنة الأولى من القسم الابتدائي بمعهد طنطا، وكان عندي نهم للقراءة في غير المقرَّرات الرَّسمية من كتب الأزهر.

وكانت قراءتي في طنطا خارج الدِّراسة في كتب الأدب، وخصوصًا أدب المنفلوطي فـــي نظراته وعَبَراته ورواياته، التـــي كان جيلنا يبدأ بها قراءته وتكوينه الأدبي، ولهـــذا كنتَ تجد البطاقات الخاصَّة بالمنفلوطي في دار الكتب بطنطا، شبه بالية، لكثرة تقليبها في الأيدي.

QaradawiBooks.com

أمَّا قراءتي في قريتي ـ صفط تراب ـ فلم يكن فيها دار كتب، ولم تكنْ كُتب الأدب ممَّا يتيسَّر وجوده في مثل تلك القرى، وفي ذلك العصر. لهذا حينَ أردتُ أنْ أقرأ وجدتُ كتبَ التصوُّف هي المتاحة لي.

اتصالي بالإمام الغزالي مبكِّرًا:

شاء القدر أنْ يهيِّئ لي كتابين كلاهما للغزالي. أحدهما: وجدته بين كتب زوج خالتي[1]، وكان رجلًا صالحًا حافظًا لكتاب الله، يعيش في خدمة بيت الله، قلَّما يخالط النَّاس رحمه الله. هذا الكتاب هو «منهاج العابدين»، الذي صنَّفه الغزالي قبل وفاته بقليل.

وقد وجدتُ متعةً كبيرة في قراءة هذا الكتاب، واستعنتُ به في دروسي ووعظي في تلك المرحلة، وإنْ كان لي عليه مآخذ وملاحظات، وخصوصًا في باب التوكُّل والزهد، وما فيه من توجُّهات حكايات تتَّسم بالمبالغة والإفراط.

والثَّاني: «إحياء علوم الدين»، فقد كان يقتنيه جار لنا، من نبهاء أهل القرى، الذين كان لهم حظٌّ من الاطِّلاع على بعض كتب الشَّافعية في العبادات، وخصوصًا في الطهارة والصلاة، ولهم مجالسة للمشايخ والعلماء، وكان تلميذًا لأحد مشايخ الطريق في بلدتنا، وهو الشيخ محمد أبو شادي، الذي كان خليليًّا، ثمَّ استقل بطريقة قوامها: العبادة والذكر، ثمَّ قراءة «الإحياء»، وشعارها الذي يحفظه مريدوها: مَن جالسنا فلا يذكر إلا الله وحده، فإنَّ كان ولا بدَّ من ذكر غيره، فليذكر الآخرة، وليذكر الصالحين!

(١) هو الشيخ طنطاوي مراد رحمه الله.

QaradawiBooks.com

اعتبروا ذكـــر الآخرة مغايـــرًا لذكر الله، وهو غير صحيـــح؛ لأنَّ ذكر الآخرة يعني: ذكر لقاء الله وحسابه وجزائه.

وقد شـــهدت بعض «حَضَراتِهم» ولم أستمر معهم؛ إذ لم يشبعوا كل نهمي، ولم يوافقوا مزاجي الوَسَطي.

فهذا ما جعل جارنا الشـــيخ بيومي[1] رحمه الله يحرص على اقتناء كتاب: «الإحياء» الذي أمسى غذاءنا وفاكهتنا عصر كلِّ يوم في إجازات الصيف، وخصوصًـــا: ربع «المهلـــكات»، وربـــع «المنجيات» منه. مـــع تحفُّظي شـــخصيًّا على بعض ما فيه من غُلُوٍّ، لم يكن ملائمًـــا لطبيعتي، ولكنِّي كنت أتأثَّر بما فيه من رقائـــق، وترتعش جوانحي، ويترقرق دمعي، وهذا من دلائل إخلاص الغزالي رحمه الله.

ولما رآني الشـــيخ بيومي حريصًا على الكتاب، تركه لي هدية، وقد بقي عندي، حتَّى إنِّـــي اصطحبته معي إلى المعتقل ســـنة (١٩٤٩م)، هو وبعض أجزاء من «العقد الفريد» لابن عبد ربِّه في الأدب.

وفي المرحلـــة الثانوية تعرَّفت على بعض كتـــب التصوُّف الأخرى، مثل: «شـــرح ابن عجيبة لحكم ابن عطاء الله السكندري»، وبعض كتب الشيخ عبد الوهَّاب الشعراني، وغيرها.

اتصالي بدعوة الإخوان وتوجُّهاتها الرَّبَّانية ومرشدها النُّورانيِّ:

وفي تلك المرحلة توثَّق اتصالي بدعوة الإخوان المســـلمين، وهي دعوة ربَّانيَّة الأساس والوجهة، وقد كان مؤسسها الإمام حسن البنَّا رجلًا ربَّانيًّا، بدأ صوفي النشـــأة، ثمَّ تحرَّر من قيود الشـــكلية الصوفية، مبقيًا

(١) هو الشيخ بيومي العزوني رحمه الله.

QaradawiBooks.com

على جوهرها. وهو سمو الرُّوح، وطهارة القلب، ومحاسبة النفس، وصدق الصلة بالله تعالى، وسلامة الصدر من الأحقاد، والحبُّ في الله، والبغض في الله.

وقد تجلَّى ذلك في شعارات الجماعة مثل: «الله غايتنا، والرسول قدوتنا»، كما تجلَّى ذلك في مناهج تربيتها، ومظاهر نشاطها، حتَّى قال الشيخ البنَّا: إنِّ دعوتنا دعوة سَلَفية، وحقيقة صوفية، وطريقة سُنِّيَّة، وهيئة سياسية، إلخ.

وكانت وسائل الإخوان في التربية والتوجيه تؤكد هذا الجانب وتعمِّقه، مثل: الأسرة، والكتيبة، والمخيم. وتركيزها على الذكر والبساطة والتلاوة للقرآن والمأثورات من الأدعية، وحبِّ الخير للناس.

ومن عرف جماعة الإخوان المسلمين من أصولها وبداياتها، وعرف إمامها ومرشدها ومؤسسها: حسن البنَّا، عرف أنَّ الدعوة في جذورها ربَّانية، وأنَّ مرشدها في أصله وأساسه ربَّاني.

ولذلك حرص على أنْ ينصَّ في رسائلها الأولى التي كان يُعرِّف فيها بالدعوة: أنَّها طريقة صوفية، كما أنَّها من أوَّل الطريق دعوة سلفية. فليس هناك تنازع ولا تضاد بين السلفية والصوفية، كما نعلم ذلك في شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه الإمام المحقِّق ابن القيِّم.

ومن رأى أنشطة حسن البنَّا ورسائله يجد هذا واضحًا في السلوك العملي، كما يجده بيِّنا يتراءى في المجال الفكري والنظري.

نجد هذا في برامج الأسر وتربيتها، وتحديد ثقافتها ومواردها، كما نجد ذلك في الكتائب الإخوانية التي ابتكرها الإمام الشهيد لجماعته،

QaradawiBooks.com

ليالي مفردة في المنـــازل، أو عدة ليالي في المعســـكرات التي تقام في المزارع أو في الصحاري القريبة، يجتمع فيها العلم والثقافة الإيمانية، مع العبادة وقيام الليل، مع التدريب على الحراسة في الليل، مع صلاة الفجر وقراءة المأثورات، ثمَّ برنامج التربية الرياضية، ثمَّ ينصرف الإخوان.

وفي رســـائل الإخوان نجد هذا الجـــوَّ الرُّوحانيَّ الفيَّاض المُشـــرِق بالنُّور، يملأ نفـــوس الإخوان بهذه النفحات الإيمانيـــة، التي تحنُّ إليها القلوب المؤمنة كلَّ حين.

ومن يقرأ رســـائل الإخوان يجد فيها هذا الوَهَج الرُّوحي طبيعيًّا غير متكلَّف، متدفِّقًا غير متوقِّف، متلألئًا غير خافت، معروضًا غير خافٍ.

وكم ذرفت الأعين حين قُرئ:

سهرُ العُيُونِ لغير وجهِكَ باطلٌ وبكاؤهنَّ لغيرِ دينِكَ ضائعُ[1]

وكانت أحاديث الجمعة في جريدة الإخـــوان اليومية كثيرًا ما يغلب فيها هذا العنصر السماوي، مثل: أيُّها الإنسان ما أنت؟

أثر أستاذنا البهيِّ الخوليِّ:

وزاد هذا الجانب تعميقًا في فكري ونفســـي: اتصالي بأستاذنا البهي الخولي رحمه الله تعالى، وهو رجل ذوَّاقة للمعاني الربَّانية، عميق الحاسَّة الرُّوحيَّة، وقد كان يرأس الإخوان في الغربيَّة، وكانت له محاضراته ودروسه التي يظهر فيها الجانب الربَّاني، والتي تجسَّـــمت بوضوح في كتابه: «تذكرة الدعاة» الذي قدَّم له الشهيد البنَّا.

(١) البيت لخالد الكاتب، انظـــر: الدر الفريد وبيت القصيد (١٣٦/٢)، تحقيق د. كامل ســـلمان الجبوري، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

QaradawiBooks.com

وكان للأستاذ البهي لقاءات خاصَّة مع مجموعة من الشباب، اصطفاهم ـ كنت واحدًا منهم ـ نصلِّي الفجر معًا كلَّ أسبوع، ونذكر الله ﷻ، ونعيش في جوٍّ روحي محلِّق، وقد أطلق على هذه المجموعة اسم: «كتيبة الذبيح»، يعني بالذبيح: إسماعيل عليه السلام الذي أسلم عنقه طاعة لله دون تلكؤ ولا تردُّد، ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

كما اتصلت بشيخنا محمد الغزالي مبكِّرًا في معتقل الطور وبعده، وهو ذو قلب صوفي، وعقل سنِّي متحرِّر، لا يخضع لخرافة، ولا يسير وراء الأوهام، وكان المحبَّب لي.

الشيخان: الأَودن وعبد الحليم محمود:

وفي دراستي العالية بكلية أصول الدين لقيت بها بعض شيوخنا الرَّبَّانيين، الذين عمقوا فيَّ هذا الجانب الرُّوحي أو الرَّبَّاني، أبرزهم اثنان: الأوَّل هو شيخنا محمد الأودن أستاذ الحديث، والثاني: هو شيخنا عبد الحليم محمود أستاذ الفلسفة، الأوَّل أزهري معمَّم، والثاني أزهري متخرِّج في فرنسا، يلبس حينذاك «البذلة» ولا يلبس العمامة. وكان لكلِّ شيخ منهما طريقته وتأثيره. الأوَّل يؤثِّر بقوَّة كلامه وتدفقه، والثاني يؤثر بصمته وتعمقه. الأوَّل محرِّض ضد الباطل، فهو أقرب إلى الرُّوح الثوريَّة، والثاني داعية إلى الزهد والإقبال على الله. وكان الأوَّل برُوحه وثوريَّته وقوَّة منطقه، وسخائه في بيته، وتواضع مظهره أقرب إلى نَفْسِي وإلى طبيعتي، وإن كنت أحبُّ الشيخ عبد الحليم وأقدِّره. وقد درَّسني الفلسفة في السنة الثالثة والسنة الرابعة من الكلية، على حين لم يدَرِّسْني الشيخ الأودن، وإنَّما كانت زيارتي له في بيته بضاحية الزيتون.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

كل هذا قوَّى المعاني الرَّبَّانيَّة في نفسي، وزادها عمقًا في كياني، ولم تكنْ عائقًا عن عملي في «الدعوة» الذي شـغل جهدي ووقتي، بل كان دافعًا ومعينًا.

ولقد اتَّسعت دراستي للتصوُّف في تلك الفترة، كما اتصلتُ اتصالًا أعمق، بـ «المدرسة السَّلَفية» وإماميها المجدِّدَيْن: ابن تيمية وابن القيِّم، وقد أعجبت بالنظرة الشـمولية التجديدية المتوازنة في هذه المدرسـة، ومقاومتها لما دخل على الإسلام من تحريفات وانحرافات في الفكر أو في السـلوك. ووجدت في إنتاج هذه المدرسـة ما قـوَّى عندي التوجُّه الرَّبَّاني بضوابطه الشرعية.

وهكذا كان التصوُّف عندي فكرًا وروحًا وخُلُقًا، لا عهدًا على شيخ، ولا التزامًا بطريقة مـن الطرق الصوفيـة المعروفة، فقـد أغنتني دعوة الإخوان عن أيِّ طريقة، وأغناني إمامها وأصحابه عن البحث عن شـيخ رسمي من مشايخ الطريق.

كما صرفني عن الطرق ما دخل عليها من خلل واضطراب في الفكر، وفي السلوك، وكذلك فَقْدُ أهل الصدق والإخلاص في صفوف قوَّادها، إلا من رحم ربُّك، وغلبة الاتِّجار بالاسم والزيِّ واللقب على الكثيرين.

ولا غرو أنْ يلمس المراقـب المنصف في جنبات كثيرٍ من التصوُّف المعاصر: الشـركيات فـي العقيدة، والبدع فـي العبادة، والسـلبيَّة في الأخلاق، والشكليَّة في الذكر، والتسيُّب في الفكر.

ومع هذا لم أتخذ موقفًا عدائيًّا من التصوُّف كلِّه، بل ظللتُ أنتفع به، وأقتبس منه، في محاضراتي وخطبي، وفي مؤلفاتي وكتبي.

QaradawiBooks.com

مواقف عملية معبِّرة:

وفي «ملتقى الفكر الإسلامي» الذي عُقِد في الجزائر سنة (١٩٨٧م) ـ على ما أذكر ـ كان موضوعه: «الإسلام والحياة الرُّوحيَّة»، وطلب إليَّ منظمو الملتقى أنْ أفتتحه بمحاضرة أساسية عن «منهج القرآن والسُّنَّة في إقامة الحياة الرُّوحيَّة».

وألقيتُ هذه المحاضرة، وكانت مرتجلة، ولكنها مُعَدَّة إعدادًا طيبًا، موثقًا بالأدلة الناصعة من الكتاب وصحيح السُّنَّة، مستأنسًا بأقوال ربَّانيِّي الأُمَّة، ولا سيما كبار شيوخ الصوفية المشهود لهم بالاستقامة والفضل. ولقد لاحظت أنَّ المحاضرة شدَّت جمهور الحاضرين، وكان لها تأثير بالغ على نفوسهم، حتَّى قام صديقنا الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، وقال: لقد ظهر لنا أنَّ الشيخ القرضاوي صوفي مقنَّع! يريد أنْ يخفي صوفيَّته بقناعِ العقلانية والسَّلَفية!

وقال لي صوفي جزائري كبير معروف[١]، ونحن على مائدة الغداء: لقد منحك الله شيئًا، به يتميز كلامك عن غيره، قلت: وما هو؟ قال: اللَّوعة! قلت: ماذا تعني؟ قال: في كلامك حرقة غير مصطنعة، تؤثر في سامعيك وهي هبة ربَّانية، يختصُّ الله بها من يشاء من عباده[٢].

وأذكر أني في جلساتنا مع شيخنا البهيِّ الخوليِّ رحمه الله، كنتُ أنقد بعض كلمات الصوفية وبعض مواقفهم، فكان يحسبني متمردًا على التصوُّف كلِّه،

(١) هو فضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف بلقايد رحمه الله، الذي أخذ عليه الشيخ الشعراوي رحمه الله حين كان رئيس بعثة الأزهر في الجزائر.

(٢) هو فضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف بلقايد رحمه الله، الذي أخذ عليه الشيخ الشعراوي رحمه الله حين كان رئيس بعثة الأزهر في الجزائر.

QaradawiBooks.com

فلما أخرجت كتابي: «العبادة في الإسلام»، وكتابي: «الإيمان والحياة» قال لي: إنَّك تحمل قلبًا صوفيًّا خدعنا عنه عقل الفقيه!

وفي زيارتي لندوة العلماء ودار العلوم بمدينة لكهنو بالهند في أوائل الثمانينات، ألقيت عددًا من المحاضرات في موضوعات فكرية متعددة كان لها وقعها وأثرها، ولكن أهم ما لفت نظري قول الإخوة من علماء الندوة وأساتذة الدار: إنَّنا اكتشفنا أنَّك من رجال التربية الرُّوحيَّة!

ويبدو أنَّ الجميع يعتقدون أنَّ سَلَفية الداعية، وعقلانية المفكر، تتعارضان مع النزعة الربَّانية أو الرُّوحيَّة، وهذا في رأيي غير صحيح، فقد كان ابن تيمية وابن القيم سلفييْن وهما ربَّانيَّان. وكان الغزاليُّ عقلانيًّا، وهو ربَّاني. فلا تناقض بين هذه الأمور إذا فُهِمَت على وجهها السليم، ووُضِعَ كل منها في موضعه الصحيح، وإنْ كان بيني وبين هؤلاء الربَّانيين مراحل ومراحل، وأسأل الله العفو والمغفرة.

موقفي النظري من التصوُّف:

وقد بيَّنت موقفي من التصوُّف في الجزء الأوَّل من كتابي: «فتاوى معاصرة» في فتويين من فتاواه[1]، وهو موقف يتميز بالإنصاف، والاعتدال في تقويم التصوُّف، فلست من المفْرطين في مدحه، ولا من المبالغين في قدحه.

فأحمد الله أنْ هداني إلى الموقف الوَسَط، الذي لا يطغى في الميزان ولا يُخسر الميزان، كما علَّمنا الله تعالى في كتابه: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ

(١) انظر كتابنا: فتاوى معاصرة (١/٧٣٤ ـ ٧٤٣)، فتوى: حقيقة الصوفية، وفتوى: التصوف بين مادحيه وقادحيه، نشر دار القلم، الكويت، ط ٩، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

ٱلْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩]، فالعدل بين الطغيان والإخسار، بين الإفراط والتفريط، فقد ذكرت ما للتصوُّف وما عليه، ولا ينكر أحد أثر التصوُّف والمتصوِّفة في الحياة الإسلامية، فكم أسلم على أيديهم من كافر، وكم تاب على أيديهم من عاصٍ، وكم رقَّقوا من القلوب، وزكُّوا من النفوس، وهذَّبوا من الأخلاق، فلْنذكرْ هذا لهم، بجوار ما نذكر من سقطات وشطحات، والمتقدِّمون فيهم ـ بصفة عامة ـ أفضل من المتأخرين.

فتوى ابن تيمية عن التصوُّف والصوفية:

ولقد وجدت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ مع صرامته في الالتزام بمنهج السَّلَف، وشدته في مقاومة البدع ـ يقف من التصوُّف والصوفية هذا الموقف الوسط العدل، وهذا من إنصافه وسَعة علمه، ورحابة أُفقه رضي الله عنه.

وقد نقلت عنه في فتواي الثانية عن التصوُّف قوله بعد أنْ سئل عن الصوفية، فكان جوابه الذي ذكره في رسالته عن «الفقراء» ـ وهو أعدل ما قيل في القوم ـ قال رحمه الله تعالى: «تنازع النَّاس في طريقهم: فطائفة ذمَّت «الصوفية والتصوُّف»، وقالوا: إنِّهم مبتدعون خارجون عن السُّنَّة، ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام.

وطائفة غلت فيهم، وادَّعوا أنَّهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء. وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

والصواب: أنَّهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله. ففيهم «السابق» المقرَّب بحسب اجتهاده، وفيهم «المقتصد»

QaradawiBooks.com

الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم مَن يُذنب فيتوب أو لا يتوب.

ومن المنتسبين إليهم مَن هو «ظالم لنفسه»، عاصٍ لربِّه.

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحقِّقين من أهل التصوُّف ليسوا منهم، كالحلَّاج مثلًا، فإنَّ أكثر مشايخ الطريق أنكروه، وأخرجوه عن الطريق، مثل: الجُنَيْد، سيِّد الطائفة، وغيره»[١]. والله أعلم.

تقويم ابن القيم للصوفية:

وكذلك أنصف الصوفية الإمام ابن القيم، كما تجلَّى ذلك في شرحه الواسع العميق المتوازن لرسالة العلَّامة الهروي «منازل السائرين». وقد كان ابن القيم يعظم الهروي ويقدِّره؛ لأنَّه كان حنبليًّا، وتوجُّهه في فهم العقيدة وبيانها توجُّه سَلَفي، ولا عجب أنْ يُطلق عليه لقب: «شيخ الإسلام»، ولهذا حاول أنْ يشرح كلامه شرحًا يُقرِّبه إلى منهج الكتاب والسُّنَّة، وهَدْي سلف الأُمَّة، ويحمله على أفضل الوجوه الممكنة، ومع هذا لم يملك في كثير من الأحيان إلا أنْ ينكر عليه[٢]، فالحقُّ أحقُّ أنْ يُتَّبع، والرجال يُعرفون بالحقِّ، وليس الحقُّ يُعرف بالرجال.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/١١، ١٨)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

(٢) انظر نموذجًا لذلك ما ذكرناه في كتابنا: الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم صـ ١٤٨، ١٤٩، فصل: ترك الطعن والتجريح، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٣، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٧م.

QaradawiBooks.com

ومن أوضح ما تبيَّن فيه ذلك التوجُّه المنصِف المعتدل قوله في شرح ما ذكره الهروي عن منزلة «الرجاء» وما جاء فيه من شطحات وتجاوزات: «شيخ الإسلام حبيبٌ إلينا، ولكنَّ الحقَّ أحبُّ إلينا منه! وكلُّ مَن عدا المعصومَ ﷺ فمأخوذٌ من قوله ومتروك»(١).

وبعد محاولة من ابن القيم لحمل كلام الهروي على أحسن المحامل قال: «هذا ونحوه من الشطحات التي تُرجى مغفرتها بكثرة الحسنات. ويستغرقها كمال الصدق، وصحَّة المعاملة، وقوَّة الإخلاص، وتجريد التوحيد، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ.

وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس.

إحداهما: حُجبت بها عن محاسن هذه الطائفة، ولطف نفوسهم، وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار. وأساؤوا الظنَّ بهم مطلقًا، وهذا عدوان وإسراف. فلو كان كل مَن أخطأ أو غلط تُرِك جملة، وأُهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات، والحكم، وتعطلت معالمها.

والطائفة الثانية: حُجبوا بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم، وحُسْن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم، ونقصانها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن، وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها، واستظهروا بها في سلوكهم.

وهؤلاء أيضًا معتدون مفرطون.

---

(١) مدارج السالكين (٣٨/٢)، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

والطائفة الثالثة: ـ وهم أهل العدل والإنصاف ـ الذين أعطوا كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، وأنزلوا كلَّ ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح، بل قبلوا ما يُقبل، وردوا ما يُرد.

وهذه الشطحات ونحوها هي التي حَذَّر منها سادات القوم، وذمُّوا عاقبتها، وتبرؤوا منها، حتَّى ذكر أبو القاسم القشيري في رسالته: أنَّ أبا سليمانَ الدَّارَاني رُئِيَ بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي. وما كان شيء أضر عليَّ من إشارات القوم.

وقال أبو القاسم: سمعت أبا سعيدٍ الشَّحَّام يقول: رأيت أبا سهلٍ الصُّعْلوكي في المنام، فقلت له: أيَّها الشيخ. فقال: دَعِ التَّشْبِيخ. فقلتُ: وتلك الأحوال؟ فقال: لم تغن عنا شيئًا. فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بمسائل كانت تسأل عنها العجائز.

وذكر عن الجريري: أنَّه رأى الجنيد في المنام بعد موته، فقال: كيف حالك يا أبا القاسم؟ فقال: طاحت تلك الإشارات، وفنيت تلك العبارات، وما نفعنا إلا تسبيحات كنَّا نقولها بالغَدَوَات»[1].

التصوُّف باعتباره تراثًا تربويًّا:

هذا والتصوُّف باعتباره تراثًا في التربية الأخلاقية والسلوك الإيماني، لا يمكن الاستغناء عنه، كما لا يمكن الاستغناء عن تراث الفقه في معرفة الأحكام الظاهرة.

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/٤٠، ٤١).

QaradawiBooks.com

ولهذا ظلَّ في نفسي خاطر يراودني من زمن، وهو الكتابة في هذا الجانب الرُّوحي، أو الرَّبَّاني، أو الإيماني، أو الأخلاقي، الذي سمَّاه العلَّامة أبو الحسن النَّدَوي: «ربَّانية لا رهبانية»، كتابة تُستمدُّ من القرآن والسُّنَّة، وتستفيد من سلف الأُمَّة، ومن تراث القوم الرحب، وتزنه بميزان الشريعة المعصومة، وتصله بقيم الإسلام الشَّامل المتوازن، وتترجمه إلى لغة العصر، بحيث يفهمه طالبوه، ويتعاملون معه بيسر.

ما ثبطني عن الكتابة في السلوك:

بَيْد أنَّه كان ممَّا يثبطني عن ذلك: ما أعلمه عن نفسي من تفريط في جنب الله تعالى، وتقصير في طاعته سبحانه، وأنَّ جناحي مهيض عن الطيران في هذه الأجواء العليا، فكيف ألقي بنفسي في بحر خضم لا أُحسن السباحة فيه، ولا الغوص في أعماقه؟

وإذا كان لي فضل هنا ـ والفضل لله وحده ـ فهو أنِّي أعرف نفسي جيدًا، ولا تستطيع بمكرها أنْ تخدعني عن سبر غورها، وكشف زيفها، ولم يغرّني عن استبانة حقيقتها مدحُ النَّاس لي، وثناؤهم على شخصي؛ وذلك لأنَّ الخلق يتعاملون مع الظواهر لا مع السرائر، مع القشور لا مع اللُّباب، مع السطوح لا مع الأعماق.

وأنا أتمثل دائمًا بقول ابن عطاء الله في حكمه: «الناس يمدحونك بما يظنُّونه فيك، فكن أنت ذامًّا لنفسك لما تعلمه منها. أجهل النَّاس مَن يترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس»[1]!

(١) حكم ابن عطاء الله شرح العارف بالله الشيخ زروق صـ ٢٧٩ ـ ٢٨١، تحقيق د. عبد الحليم محمود ود. محمود بن الشريف، نشر مطبعة دار الشعب، القاهرة، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

QaradawiBooks.com

وكم أخجل من نفسي ـ واللهِ ـ حين يضفون عليَّ من الأوصاف ما لست أهلًا له، وهذا من جميل ستر الله على عباده، وما أجمل ما قاله أبو العتاهية:

أحسنَ اللهُ بنا أنَّ الخطايا لا تَفُوحُ
فإذا المستورُ مِنَّا بين جَنْبَيْه فُضُوحُ[١]

وفي هذا قال ابن عطاء أيضًا: المؤمن إذا مُدح استحيا من الله أنْ يُثنَى عليه بوصفٍ لا يشهدُه من نفسه[٢]!

إذا أُطلق الثناءُ عليك ولستَ له بأهلٍ، فأثْنِ عليه ـ تعالى ـ بما هو أهله[٣]!

مَنْ أكرمك فإنَّما أكرمَ فيك جميلَ سَتْرِه، فالحمدُ لمن سَتَرك، ليس الحمدُ لمن أكرمَكَ وشَكَرَك[٤]!

وكثيرًا ما كنت أتمثَّل ـ عندما يمدحني مادحٌ أحسن بي ظنَّه ـ بقول الشَّاعر الصالح يناجي ربَّه:

يَظُنُّون بي خيرًا وما بيَ منْ خيرِ ولكنَّني عبدٌ ظَلومٌ كما تدري!
سترتَ عيوبي كلَّها عن عيونهم وألبستني ثوبًا جميلًا من السَّتْرِ
فصاروا يحبُّوني، وما أنا بالذي يُحَبُّ، ولكن شبَّهونيَ بالغَيْرِ!
فلا تَفْضَحَنِّي في القيامةِ بينَهم وكنْ لي يا مولاي في موقفِ الْحَشْرِ[٥]

---

(١) ديوان أبي العتاهية صـ ١١٦، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٦م.
(٢) حكم ابن عطاء الله شرح الشيخ زروق صـ ٢٨٠.
(٣) المصدر السابق صـ ٢٨١.
(٤) نفس المصدر السابق صـ ٢٦٨، ٢٦٩.
(٥) ذكرها ابن الحاج من غير نسبة في المدخل (٢٠٣/٣)، نشر دار التراث.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

كان حيائي من ربِّي، ثمَّ من نفسي وتقصيري، حائلًا بيني وبين الدخول في علم السلوك، رغم طلب عدد من إخواني وتلاميذي أنْ أكتب في ذلك للناس شيئًا، لعلَّ الله ينفع به.

ثم قوَّى عزمي على ذلك قوة رجائي في رحمة الله تعالى ومغفرته وإحسانه، وأنِّي إنْ لم أكنْ أهلًا أنْ أنال رحمته، فرحمته أهل أنْ تنالني، وقد قرأت في «الصحيح»: أنَّ رَجُلًا جاء يسأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال له: «**وما أعددتَ لها؟**». قال: واللهِ، ما أعددتُ لها من كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكنِّي أحبُّ الله ورسوله! قال: «**أنت مع مَن أحببتَ**»[(١)].

فما فرح الصحابة بشيء فرحهم بهذا الحديث، ليقينهم بأنَّهم يحبُّون الله ورسوله.

وقيل للنبي ﷺ: الرجل يحبُّ القوم، ولما يلحق بهم! قال: «**المرء مع مَن أحبَّ**»[(٢)].

بل صحَّ أنَّ رجلًا جيء به إلى رسول الله ﷺ مرَّات كثيرة في شرب الخمر، وهو يُضرَب، ثمَّ يعود، حتَّى قال بعض الصحابة، ما أكثر ما يؤتى به، لعنه الله! فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنْه، فإنَّه يحبُّ اللهَ ورسولَه**»[(٣)].

وأنا أرجو أنْ أكون ممن يحبُّ الله ورسوله، ويحبُّ الصالحين من عباده، وإنْ لم يكن منهم: كما قال القائل:

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٦٨٨)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٣٩)، عن أنس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١٧٠)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٤١)، عن أبي موسى الأشعري.

(٣) رواه البخاري في الحدود (٦٧٨٠)، عن عمر بن الخطاب. بلفظ: «لا تلعنوه؛ فوالله ما علمت إنه يحبُّ الله ورسوله».

غير مرخصة للطباعة
نسخة مرخصة
QaradawiBooks.com

أُحبُّ الصالحين ولستُ منهم عساني أنْ أنالَ بهم شفاعةْ!
وأكرهُ مَن بِضَاعته المعاصي وإن كُنَّا سواءً في البضاعةْ[1]!

حاجة النَّاس إلى الحياة الرَّبَّانيَّة والتربية الإيمانيَّة:

لقد تبيَّن لي من خلال التجربة العملية، والممارسة الميدانية، مع عوامِّ النَّاس ومع مثقَّفيهم، مع الغافلين منهم، ومع العاملين في الجماعات الإسلامية المختلفة، أنَّ الجميع أفقر ما يكونون إلى تربية إيمانية صادقة، تغسل قلوبهم من حبِّ الدنيا، ومن حبِّ أنفسهم، وتأخذ بأيديهم إلى الله تعالى، وتحررهم من العبودية للأشياء وللأهواء وللأوهام، ليعتصموا بالعبودية لله وحده، وبذلك يُطهِّرون عقولهم من الشرك، وقلوبهم من النفاق، وألسنتهم من الكذب، وأعينهم من الخيانة، وأقوالهم من اللَّغو، وعباداتهم من الرياء، ومعاملاتهم من الغش، وحياتهم من التناقض.

وبعبارة أُخرى: هم في حاجة إلى «التزكية» للنفوس، التي لا فلاح بغيرها، كما قال تعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا** ﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

والتزكية من الزكاة ومعناها: الطهارة والنماء، والطهارة تعني: التخلي عن النفاق والرذائل، والنماء يعني: التحلِّي بالإيمان والفضائل، فهي ـ كما يقول أهل السلوك ـ تخلية وتحلية.

---

(١) ذكره ابن الجوزي ولم ينسبه في بحر الدموع صـ ٨٦، تحقيق جمال محمود مصطفى، نشر دار الفجر للتراث، ط ١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، وهو في الديوان المنسوب للإمام الشافعي صـ ٩٠، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٥م.

QaradawiBooks.com

ولقد جعل القرآن من مهمَّة الرسول الأساسية: «التزكية» مع تلاوة آيات الله، وتعليم الكتاب والحكمة، كما جاء ذلك في أربع آيات من كتاب الله، منها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ولقد قام النبي ﷺ بمهمته خير قيام، وربَّي أفضل جيل عرفته البَشرية: إيمانًا وتعبدًا، وخُلُقًا وبذلًا، وجهادًا في سبيل الله، وكان هذا الجيل النموذجي معلِّمًا للبَشرية كلها من بعد.

والنَّاس أحوج ما يكونون إلى التأسِّي بهذا الجيل الرَّبَّاني، والتَّخَلُّق بأخلاقه التي وصفها الله في آخر سورة الفتح، وتحقيق «شُعَب الإيمان» السبعة والسبعين في حياتهم حتَّى يرضى الله عنهم، وحتى يصلوا إلى درجة «الإحسان» الذي عرَّفه الرسول الكريم بقوله: «**أن تعبد اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ لم تكنْ تراه، فإنَّه يراك**»، كما جاء في حديث جبريل المشهور[1].

إنَّهم في حاجة إلى معرفة عيوب النفس، وأمراض القلوب، ومجامع الهوى، ومداخل الشيطان، وكيف يتَّقيها المسلم ما استطاع. فالوقاية أسلم، وكيف يعالجها إذا سقط فيها، فما جعل الله داء إلا جعل له شفاء، علمه مَن علمه، وجهله مَن جهله.

ولكن الخطر هو اهتمام النَّاس بأمراض أبدانهم، وغفلتهم عن أمراض قلوبهم، وإذا تَنبَّهوا لها، فأين يجدون أطباء القلوب؟ والمفروض

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

أنَّهم العلماء، بَيْد أنَّ العلماء أنفسهم باتوا من جملة المرضى، فلا حول ولا قوة إلا بالله!

وقد قال الشاعر:

بالملح يُصْلَح ما يُخشى تغيُّرُه فكيف بالمِلْحِ إنْ حلَّت به الغِيَرُ[1]؟!

لكن الخير لن ينقطع عن هذه الأُمَّة، ولا تخلو الأرض من قائم لله بالحجَّة.

إنَّ الحياة المادية المعاصرة رحًى طحون، والناس هم الحَبُّ المحصور بين حَجَريها الكبيرين، تطحنهم طحنًا، ثمَّ بعد ذلك يُعجنون ويُخبزون، ولا تنضجهم إلا النار!

ولا سبيل أمام البشرية عامة، والمسلمين خاصَّة، إلا بالحياة الرَّبَّانية.

إنَّهم في حاجة إلى «ربَّانية نقيَّة» ترفعهم من حضيض عِبَاد الشيطان، إلى ذُرَا عِبَاد الرحمن، وتنقلهم من تعاسة عبودية الدينار والدرهم، وعبوديَّة الدنيا، إلى سعادة التحرر منها، وعز طالب الآخرة. إنَّهم في حاجة إلى «الصدق مع الحق، والخُلُق مع الخَلْق»، وهذا ملخَّص التصوُّف، أو هو تقوى الله والإحسان إلى خلقه، وهذا هو الدين كله، وإليه الإشارة بقوله تعالى في ختام سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

نريدها «ربَّانية نقيَّة» واضحة الغاية، بيِّنة الطريق، مستقيمة على أمر الله، متبعة لسُنَّة رسول الله ﷺ، ماضية على نهج السَّلَف، بعيدة عن بدع

(١) ذكره أبو حيان التوحيدي ولم ينسبه في البصائر والذخائر (١٦٨/٢)، تحقيق د. وداد القاضي، نشر دار صادر، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

QaradawiBooks.com

القول والعمل، وانحراف الاعتقاد والسلوك، تسمو بالرُّوح، وتزكي النفس، وتحيي الضمير. تجدِّد الإيمان، وتُصلِح العمل، وتَرْقى بالأخلاق، وتُنمِّي حقيقة الإنسان!

لا نريدها دروشة منحرفة، ولا رهبانية مغالية، ولا مظهرية زائفة، ولا نظريات فلسفية بعيدة عن روح الإسلام، ووسطية الإسلام.

موقف بعض السَّلَفيين من التصوُّف:

وأودَّ أنْ أنبِّه هنا: أنَّ بعض الإخوة السلفيين يغالون في الموقف من التصوُّف، ويعتبرونه كلَّه شيئًا دخيلًا على الإسلام، ويتَّهمون أهله كلهم بالابتداع والانحراف، كما يتَّضح ذلك من تعليقات العلَّامة الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله تعالى، على كتاب: «مدارج السالكين» لابن القيم، ومثله كثير من أتباع المدرسة السَّلَفية، الذين أرسلوا أقلامهم وألسنتهم شواظًا من نار على التصوُّف كلِّه. وعلى أتباعه جميعًا، قديمًا وحديثًا، وهذه مبالغة غير صحيحة، وغير مقبولة، وغير نافعة.

ابن تيمية وابن القيم رجلان ربَّانيَّان:

ومن العجيب أنَّ هؤلاء ينتمون إلى مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم، وهما من الرَّبَّانيِّين الصادقين نظريًّا وعمليًّا.

نظريًّا، كما تدلُّ على ذلك كتاباتهما، فابن تيمية له رسائل في التصوُّف والسُّلوك بلغت مجلدين من مجموع فتاويه، بالإضافة إلى كتابه: «الاستقامة»، الذي صدر في جُزْأَين بتحقيق الدكتور رشاد سالم رحمه الله تعالى.

وابن القيم له مجموعة كبيرة من المؤلفات، مثل: الجواب الكافي، وطريق الهجرتين، وعدة الصابرين، وروضة المحبِّين، وأعظمها وأوسعها

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

من غير شكٍّ: مدارج السالكين شـرح منازل السائرين إلى مقامات إيَّاكَ نعبدُ وإيَّاكَ نستعين.

وعمليًّا، كمـا دلَّت على ذلك سـيرة الرجليـن، وصلابتهما في الحقِّ، وصبرهما على الأذى، وجهادهما في سـبيل الله، وحبهما لله ورسـوله، وإقبالهما على الله تعالى، إقبالًا يشـهد به كلُّ مَن عرفهما واقترب منهما رضي الله عنهما.

حسْبُك من ابن تيمية أنَّه تقبَّل المحن والسجن في سبيل الله، بنفسٍ راضية، وقلبٍ مطمئنٍّ، قائلًا: إنَّ جنَّتي فـي صدري، حيثما ذهبت فهي معي، ماذا يصنع أعدائي بي؟ إن سـجنوني فسـجني خَلْوة! وإن نَفَوْني فنفيي هجرة! وإن قتلوني فقتلي شهادة!

وحين أُدخل ليُسجن، ورأى سورها، ذكر قول الله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣][1].

إنَّها الرَّبَّانيَّة التي تسـتعذبُ العذاب في سـبيل الله، وتعيش في جنَّة الرضا مهما أصابها في ذات الله.

ومن إنصـاف ابن تيمية: أنَّـه أثنى على كثير من مشـايخ الصوفية، ومنهم الشـيخ عبد القادر الجيلانـي، الذي نقل عنه بعـض كلماته في «القَدَر» ونوَّه بها، وكذلك ابن القيم.

وهذا ما ينقص كثيرًا ممن يدَّعون الانتسـاب إلى مدرسـته، ولا تجد لأحدهم عينًا تدمع، ولا قلبًا يخشـع، ولا جسـدًا يرتعش، من

(١) نقل ذلك عنه تلميذه ابن القيم في الوابل الصيب صـ ٤٨، تحقيق سـيد إبراهيم، نشـر دار الحديث، القاهرة، ط ٣، ١٩٩٩م.

QaradawiBooks.com

خشـــية الله تعالى، ولا تحسُّ لديهم تلك العاطفة الندية الدافقة بحب الله تعالى ورسوله.

ولكنَّه الاتباع الآلي الجاف الصارم، كأنَّما هو ترس في ماكينة، يُدار فيدور، ولا روح له، ولا حياة فيه!

وفي مقابل هؤلاء صنف يتمتع بالعاطفة الحـــارَّة، والوجدان الحقِّ، والرُّوح الفيَّاض بالحبِّ والخشـــية، ولكنه غير منضبط بضوابط الشرع، يَحْكمه ذوقه ووجدانه، أو ذوق مشـــايخه ووجدانهـــم، وهؤلاء هم أكثر المتصوِّفة، أعني المخلصين منهم.

وكلا الصنفين أفرط في ناحية وفرَّط في أخرى، والخير كل الخير في الوسطية المتميزة عن طرفي الإفراط والتفريط.

تصويف السَّلَفية، وتسليف الصوفية:

لهذا كان مـــن الخير أنْ نطعِّـــم كلَّ واحدٍ من الصنفيـــن أو الطرفين بالمزايا التي عند الطرف الآخر، وهو ما عبَّر عنه المفكر المسلم الأستاذ محمد المبارك رحمه الله تعالى بقوله: نسلِّف الصوفية، ونصوِّف السَّلَفية!

وبهذا التطعيم ينشأ صنف جامع لمزايا الفئتين، منزَّه عن عيوب كلٍّ منهما.

وأحسب أنَّ هذا ما حاوله الإمام حســـن البنَّا الذي كان يجمع ـ في رأيي ـ عقلية السَّلَفي الملتزم، وروحانية المتصوِّف المحلِّق.

وهذا ما أحاول أنْ أصل إليه بإصدار هذه السلســـلة التي أدعو الله أنْ يوفقني فيها؛ لأبيِّن فيها لســـالكي الطريق إلى الله تعالى: ما ينبغي علمه وعمله، حتَّى يجوزوا عقباتـــه، ويقطعوا مراحله، ويتخطوا عوائقه، بيقين

QaradawiBooks.com

أهل المعرفة، وعزيمة أهـــل الصبر، ونية أهل الإخـــلاص، وجهاد أهل الصدق، وثبات أهل الإيمان، وإحسان أهل المحبة.

منهجنا في هذه الدراسة:

وسأجتهد في هذه الدراسة: أنْ نردَّ التصوُّف إلى جذوره الإسلامية، مستمدين من محكمات القرآن الكريم وصحيح السُّنَّة المطهرة، وأن أنقِّي التصوُّف الحقَّ ممَّا علق به من شوائب كدرت صفاءه، وشابت جوهره، ممَّا تأثر به من مصادر أجنبية غريبة عن طبيعة الإسلام ووَسطيته، ومما دخل عليه من أوهام البشر وأهوائهم وتجاوزاتهم المائلة إلى الغلو حينًا، وإلى التقصير حينًا آخر، ودين الله ـ كما قال سَلَف الأُمَّة ـ بين الغالي فيه والجافي عنه.

وقد كان ممَّا أثر في التصوُّف جملة أشياء، منها:

١ ـ قبول «الإسرائيليات» التي جاء بها مَن أســـلم من أهل الكتاب، وكثير منها لا يوجد له أصل في كتبهم المعروفة، ممَّا يدلُّ على أنها من حكايات العوام بعضهم لبعض.

٢ ـ أخـــذ كلَّ ما يروى من الأحاديث النبوية مأخذ التســـليم، دون تمييز بين ما يُقبل وما يُرد، بناءً على ما قيل من أنَّ الحديث الضعيف يُعمل به فـــي فضائل الأعمال، وفي الترغيـــب والترهيب ونحو ذلك، ورغم أنَّ هذا ليس متَّفَقًا عليه، فإنَّ الذين قالوه اشترطوا لقبول الضعيف شـــروطًا لم يراعها المتصوِّفة في الغالب، حتَّـــى إنَّهم رووا الأحاديث الضعيفة جدًّا، والتي لا أصل لها بالمرة، والموضوعة المكذوبة، وهذا شائع بينهم ومعروف.

QaradawiBooks.com

٣ ـ الثقة المطلقة بشيوخهم، فما قاله الشيخ فهو حقٌّ، وما أمر به فهو مطاع، دون أن يعرض ذلك على الشرع، وقد شاع في التربيَّة عندهم قولهم: مَن قال لشيخه: لِمَ؟ لا يفلح! المريد بين يدي الشيخ كالميِّت بين يدي الغاسل!! مع أنَّ من المقرَّر المتَّفق عليه: أنَّ كلَّ أحدٍ يؤخذ من كلامه ويُرَدّ عليه، إلا المعصوم ﷺ.

٤ ـ الثِّقة كذلك بأذواقهم ووجداناتهم الخاصَّة، وما يأمر به الكشف والإلهام، والرجوع إلى حكمها مثل حكم الشرع أو قبله! مع أنَّ تلك الأذواق والإلهامات، غير مأمونة ولا معصومة، وقد أغنانا الله عنها بالوحي الذي لا يضل ولا ينسى.

٥ ـ عدم الوقوف عند ما جاء به الشرع في العبادات والأذكار والسلوكيات، ووضع أوراد من عند المشايخ بدل الأوراد المأثورة، واختراع عبادات أو قبول عبادات لم يأمر بها قرآن ولا سُنَّة، وإنَّما هي ممَّا أحدثه الناس، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

لهذا سيكون عمدتنا هو القرآن الكريم المصدر الأوَّل للملَّة، والينبوع الأوَّل للعقيدة والشريعة والتربيَّة والسلوك، ثمَّ السُّنَّة المشرَّفة المبيِّنة للقرآن، مكتفين بالصحاح والحسان من الأحاديث، فهي التي تُبَيِّن موقف الإسلام من الأحكام ومن السلوك، وما نذكره من حديث نُبيِّن مَن أخرجه ودرجته، وعندنا من الأحاديث المقبولة ما يُغنينا عن الأحاديث الواهية، وإذا ذكرنا في أحيانٍ قليلة الضعيف، فذلك للاستئناس به، لا للاحتجاج والاستشهاد.

وسنضرب صفحًا عن الإسرائيليَّات إلا ما كان منها مؤيِّدًا لما ثبت في ديننا من فضائل ومكارم، وكذلك عن غرائب الأقوال والحكايات التي تتَّسم بالمبالغة والتهويل، ولا يقوم على صحَّتها دليل.

QaradawiBooks.com

وسننقل عن كبار شيوخ القوم ما لا بدَّ لنا منه، لشرح المفاهيم، وبيان الحقائق، وتوضيح القيم، وخصوصًا المعروفين منهم بالاستقامة والالتزام، مثل: سيِّد الطائفة الجُنَيْد، وسهلٍ التُّسْتَري، وأبي سليمان، والزُّهَّاد الأوائل مثل: الحسن البصري، والفُضَيْل بن عِيَاض ومالك بن دينار وغيرهم.

وسنقتبس من تراث القوم ما يكشف الغوامض، وينير العقول، ويوقظ القلوب، ويحرك العزائم، مثل: كتب الحارث المحاسبي، والقشيري، وأبي طالب المكي، والغزالي، وابن القيم، وابن عطاء الله، وغيرهم، إلى جوار ما نأخذ من المفسِّرين والمحدِّثين والفقهاء والمربِّين، من القدماء والْمُحْدَثين.

وسنبتعد عن «المصطلحات» والكلمات المثيرة للجدل والخلاف، متوخين السهولة والتيسير والاعتدال، فإنَّ هدفنا أنْ نبني ولا نهدم، وأن نجمع ولا نفرق، وأن نهدي ولا نؤذي، والعبرة بالمسميات والمضامين لا بالأسماء والعناوين.

وأملنا أنْ نُسهم ـ بهذه السلسلة ـ في تقريب النَّاس من ربِّهم الذي خلقهم فسوَّاهم، لنأخذ بأيديهم إلى الله، ونحشدهم في ساحة رضاه، والتخفيف من التكالب على الدنيا والغفلة عن الآخرة، وتقوية الإيمان في القلوب، حتَّى يحبَّ أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، فإنَّ لم يرق إلى هذه الدرجة، فليطهر صدره من الغلِّ والحسد والأحقاد والبغضاء، فإنَّها هي الحالقة، لا تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، والتحذير من القواطع الأربعة، التي تقطع السالكين عن طريق الله، والتي قال فيها الشاعر:

QaradawiBooks.com

إنِّـي بُليـتُ بأربـعٍ يَرْمِينَنِـي بالنَّبْـلِ عـن قـوسٍ لـه توتيرُ!
إبليسُ والدنيا ونفْسِـي والوَرَى يا ربّ أنت على الخلاصِ قديرُ[1]!

التوازن بين فقه الأحكام وفقه السلوك:

الحقُّ أنَّ فقه الأحكام الفرعية العملية المتعلقة بظاهر الحياة الدنيا ومعايش الناس، قد شـغل مـن حياتنا وفكرنـا وجهدنا حيِّـزًا كبيرًا، خواصّنا وعوامّنا.

لهذا الفقه أنشـئت المجامع المحلية والعالميـة، وعقدت الندوات والمؤتمرات المتخصِّصة، وأنشئت الكليات والأقسـام، وأُلِّفت الكُتُب ما بين مبسوطٍ ووسيط ووجيز.

هذا بالنسبة للخواصِّ، وبالنسـبة للعوامِّ، قد شغلوا أنفسهم وشغلهم علماؤهم بالجزئيات والتفصيلات، بل التعقيدات، حتَّى غدا باب الطهارة يدرس للجمهور خلال شهر رمضان كله، ثمَّ لا ينتهون منه.

هذا، وقد كان الرجل يأتي النبي ﷺ من باديته، فلا يمكث إلا يومًا أو أيامًا، ثمَّ يعود إلى قومه، وقد فقه دينه، بالرؤية والمشاهدة: «**صلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي**»[2].

ليس معنى هـذا أنْ نهمل فقه الأحـكام الظاهرة، بـل هو مطلوب وواجب، ولكـن التوازن مطلوب وواجـب أيضًا: التـوازن بين الظاهر والباطن، أو بين أعمال الجوارح وأعمال القلوب.

(١) ذكرهما القرطبي ولم ينسبهما في التذكرة صـ ٨٨٠، نشر مكتبة دار المنهاج، الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ.

(٢) رواه البخاري في الأذان (٦٣١)، عن مالك بن الحويرث.

QaradawiBooks.com

لقد جعل الإمام الغزالي «الفقه» القائم على مراعاة الظاهر وحده، من «علوم الدنيا» لا من علوم الآخرة! حتَّى إنَّه عاب على أهل الفقه في زمنه تركهم بعض فروض الكفاية المهمَّة للأُمَّـة، وأكبوا على الفقه لما وراءه من مناصب القضاء والإفتاء وغيرها، على حين لا يوجد طبيب في البلدة إلا من أهل الذمة!

لذا كان لا بدَّ أنَّ نعيد لـ «فقه القلوب» مكانه ومكانته، ونعطيه حقَّه من الاهتمام العلمي والعملي، وأن نوجه عناية الخاصَّة والعامة إلى «فقه السلوك»، سـلوك طريق الله، وطريق الآخرة، فلا نجاة إلا به، ولا صلاح بغيره، بل لا حياة بدونه، ولا وصول إلى الله بسواه.

إنَّها التجارة الرابحة التي غفل عنها أكثـر الخلق: التعامل فيها مع ربِّ العالمين، ورأس المـال لها هو العمر، والبضاعة هـي الطاعة، والربح هو المغفرة والجنَّة في الآخرة، والحياة الطيبة في الدنيا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فمن ضيَّع هذه التجارة، فقد ضيَّع نفسه، وخسر كل رأس ماله، وفاته خير الآخرة والأولى.

على نفسه فليبك مَن ضاع عمره ... وليس له منها نصيب ولا سهم[1]!

وصدق الله إذ يقول: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

(١) من شعر ابن الفارض، كما في الدر الفريد وبيت القصيد (٨٨/٧).

QaradawiBooks.com

وخسارة رأس المال هنا لا عوض لها، إذ لا عمر بعد العمر، ولا تأخير إذا جاء الأجل: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١].

أسأله تعالى أنْ يجعل هذه الدراسات قبسًا من العلم النافع، وعونًا على العمل الصالح، ونورًا يضيء الطريق، ويجعلها لي لونًا من المجاهدة فيه، ولا يحرمني من الهداية التي وعدها بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

«**اللهمَّ إنَّا نعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشع، ومن عملٍ لا يُرفع، ومن دعوةٍ لا يُستجابُ لها**»[(١)].

اللهمَّ اجعلْنا من عبادك الذين يتعلَّمون فيعْلَمون، ويَعْلمون فيعملون، ويعملون فيخلصون، ويخلصون فيثبتون، ويثبتون فيُقبَلون.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۞ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٨، ٩].

الدوحة في ذي الحجة ١٤١٣هـ
يونيو «حزيران» ١٩٩٣م[(٢)]
الفقير إلى الله تعالى
يوسف القرضاوي

* * *

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٢٢)، عن زيد بن أرقم.

(٢) هذا تاريخ كتابة المقدمة، وهأنذا أقدم الكتاب للطبع بعد سنتين: أي في ذي الحجة ١٤١٥هـ ـ يونيو ١٩٩٥م.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مصححة
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

خصائص الحياة الرَّبَّانيَّة أو الرُّوحيَّة في الإسلام

- التوحيد.
- الاتباع.
- الامتداد والشمول.
- الاستمرار.
- اليُسر والسعة.
- التوازن والاعتدال.
- التنوع.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

للحياة الرَّبَّانيَّة أو الرُّوحيَّة في الإسلام خصائص تميِّزها عن أي حياة تنسب إلى الرُّوح في الأديان الأخرى، كتابيَّة أو وضعيَّة.

١ ـ التوحيد:

التوحيد هو أوَّل خصائص الحياة الرُّوحيَّة في الإسلام، وهو أيضًا أوَّل مقوماتها، فلا وجود لهذه الحياة بغير التوحيد، ولا تميِّز لها بغير التوحيد.

ومعنى التوحيد هو: إفراد الله تعالى بالعبادة والاستعانة، فلا يُعبد إلا الله، ولا يُستعان إلا بالله، وهذا مقتضى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، الآية التي جعلها الله تعالى واسطة عقد فاتحة الكتاب وأُم القرآن، وجعلها الإمام الهروي محور رسالته «منازل السائرين إلى مقامات: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾»، والتي شرحها ابن القيم في «مدارج السالكين».

والعبادة معنى مركَّب من عنصرين: غاية الخضوع للمعبود، مع غاية الحبِّ له، كما شرحنا ذلك في كتابنا: «العبادة في الإسلام». وهي الغاية من خلق المكلَّفين جميعًا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

لقد بيَّن القرآن أنَّ الأنبياء جميعًا بُعِثوا إلى أقوامهم برسالة التوحيد: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، وهود: ٥٠، ٦١، ٨٤،

QaradawiBooks.com

والمؤمنون: ٢٣، ٣٢]، وتحريرهم من عبادة الطاغوت أيًّا كان اسمه وعنوانه، وأيًّا كان شكله وصورته، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

قد يكون هذا الطاغوت المعبود من دون الله بَشَرًا ظاهرًا أو جنًّا مختفيًا عن الأعين. وقد يكون حيوانًا كالبقرة والعجل، وقد يكون قوَّة من قوى الطبيعة، وقد يكون حجرًا من الأحجار، نحته النَّاسُ وصوَّروه ثمَّ عبدوه! قد يكون شيطانًا مريدًا، وقد يكون نبيًّا معصومًا أو وليًّا صالحًا، ولا ذنب له في عبادتهم إياه.

جاء الإسلام يحرِّر النَّاس من عبادة غير الله: عبادة الأشخاص، وعبادة الأشياء، وعبادة الأهواء. وقد قال ابن عباس: شرُّ إلٰه عُبِدَ في الأرض: الهوى[1].

وكانت دعوة النبي ﷺ إلى ملوك النصارى وأمراء أهل الكتاب تُخْتَم بهذه الآية الكريمة: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

إنَّ الذي أفسد الحياة، وأضلَّ الناس، ليس هو الإلحاد، فقد كان الملحدون الجاحدون لوجود الله قِلَّة لا وزن لها طوال عصور التاريخ، إنَّما هو الشرك، الذي جعل النَّاس يعبدون مع الله آلهة أُخرى، يزعمون أنَّها تشفع لهم عند الله. وقد غدا هذا الشرك وكرًا للكهانة والدجل، ومباءة للخرافات والأباطيل. والانحطاط بالإنسان من ذُرَا الكرامة إلى

(١) انظر: المدخل لابن الحاج (١١٦/٣)، نشر دار التراث.

QaradawiBooks.com

حضيض الهوان: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١].

إنَّ الحياة الرُّوحيَّة كما يريدها الإسلام تقوم على التوحيد الخالص لله، وهذا التوحيد يقوم على عناصر أربعة، أشارت إليها سورة الأنعام، وهي سورة التوحيد:

أوَّلها: ألا يبغي غير الله ربًّا: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وثانيها: ألا يتَّخذ غير الله وليًّا: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٤].

وثالثها: ألا يبتغي غير الله حَكَمًا: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤].

ورابعها: ألا يبتغي غير رضا الله غاية: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

فإذا اكتملت هذه العناصر علمًا وحالًا وعملًا، تحقَّق التوحيد، الذي هو أساس الحياة الرُّوحيَّة، بل هو روح الوجود الإسلامي كله.

٢ ـ الاتباع:

وثانية خصائص هذه الحياة كما يريدها الإسلام: الاتباع.

فليست الحياة الرَّبَّانيَّة أو الرُّوحيَّة الإسلامية مادة هلامية رجراجة، يشكلها النَّاس بما يشاؤون، وكيف يشاؤون، بل هي حياة منضبطة بأحكام الشرع الإلهي.

QaradawiBooks.com

وإذا كان جوهر الحياة الرُّوحيَّة هو حسن الصلة بالله تعالى، بذكره وشكره وحسن عبادته جَلَّ شأنه، فإنَّ هذه الصلة مضبوطة بأصلين أساسيين:

الأول: أنْ تكون العبادة لله وحده، فلا يُشْرَك به أحد، ولا يُشْرَك به شيء، لا نبيّ ولا وليّ، ولا مَلَك ولا جن، ولا بشر ولا حجر: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

الثاني: ألا يُعبد الله إلا بما شرعه، في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ. حتَّى لا يشرع أحد في الدين ما لم يأذن به الله، فالأصل في العبادات الشعائرية التوقيف والمنع، حتَّى يأتي نصٌّ من الشارع ينشئها. على خلاف الأصل في العادات والمعاملات وشؤون الحياة، فالأصل فيها الإذن والإباحة، ما لم يأت نص محرِّم من الشارع.

وقد سئل أبو علي الفضيل بن عياض رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [هود: ٧، والملك: ٢]: ما أحسن العمل؟ قال: أحسن العمل أخلصه وأصوبه، فلا يُقبل من العمل إلا ما كان خالصًا صوابًا، قيل: وما خلوصه وصوابه؟ قال: خلوصه أنْ يكون لله، وصوابه أنْ يكون على السُّنَّة[1].

فالذين يحكمون أذواقهم ومواجيدهم في إنشاء صور وابتداع أشكال وأساليب للعبادة، استحسنتها عقولهم، وزيَّنتها لهم أهواؤهم، مخطئون

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/٩٥).

QaradawiBooks.com

خطأ فاحشًا، وإنْ كانوا يقصدون التقرُّب إلى الله تعالى: فإنَّ شرعية العبادة لا تُستمَد من تحسين العقل، ولا من تزيين الهوى، بل من الوحي وحده.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**مَن أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**»[(١)]. يريد: مَنِ ابتدع في ديننا صورًا للتعبد لم يشرعها الله فهي مردودة عليه، غير مقبولة منه.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**عليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليه بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كل بدعة ضلالة**»[(٢)].

٣ ـ الامتداد والشمول:

وثالثة هذه الخصائص تتمثَّل في الامتداد والشمول.

فالمسلم لا يعيش حياتين متناقضتين: روحية مستقلة ومادية منفردة.

بل هي حياة واحدة تمتزج فيها الرُّوحانية بالماديَّة امتزاج الرُّوح بالجسم والعصارة بالغصن.

فالحياة الرُّوحيَّة للمسلم حياة ممتدة عميقة نافذة شاملة، تصحبه في جلوته وخلوته، في البيت وفي الطريق، في العلم وفي العمل، في السفر وفي الحضر، عند النوم وعند اليقظة، فليست الحياة الرُّوحيَّة للمسلم مقصورة على المسجد، عند أداء العبادة الشعائرية، ثمَّ ينطلق محلول اللِّجام، لا يتقيد بشيء، بل هو مع الله دائمًا، لا يغفل عنه، ولا ينسى

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨)، عن عائشة.

(٢) رواه أحمد (١٧١٤٢)، وقال مخرجوه: صحيح بطرقه وشواهده. وأبو داود في السنة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم (٢٦٧٦)، وقال حسن صحيح. وابن ماجه في المقدمة (٤٢)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٣٧)، عن العرباض بن سارية.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ذكره، ولا يهمل رقابته: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].

ولهذا شُرع الذكر والدعاء في كلِّ شأن من شؤون الحياة: في الإصباح والإمساء، والدخول والخروج، والأكل والشرب، والنوم واليقظة، والسفر والأوبة، حتَّى عند الشهوة الجنسية، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

والمسلم في أعماله الدنيوية المحضة من زراعة وصناعة وتجارة وإدارة، ليس معزولًا عن الحياة الرُّوحيَّة، فهو مطالَب بأن يراقب الله في عمله، فيتقنه، فلا يغش ولا يخون ولا يظلم: «**إنَّ اللهَ يحبُّ من العامل إذا عمل أن يحسنَ**»(١)، «**إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء**»(٢). وهو مطالَب كذلك ألا يلهيه أمر دنياه عن واجبه نحو ربِّه، فإذا نادى المنادي أنْ «حيَّ على الصلاة» انتشل نفسه من لجَّة الأشغال الدنيوية، ليقف بين يدي ربِّه مناجيًا خاشعًا، وهو ما وصف الله به رُوَّاد مساجده، وعُمَّار بيوته، بقوله: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

على أنَّ المسلم بنيته الصالحة، واتجاهه الصادق إلى الله، يستطيع أنْ يجعل أعماله الدنيوية عبادات وقربات إلى الله تعالى.

---

(١) رواه الطبراني (١٩٩/١٩)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٥٨٦٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٣٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٣٧)، عن كليب الجرمي.

(٢) رواه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، وأحمد (١٧١١٣)، عن شداد بن أوس.

QaradawiBooks.com

إنَّ المؤمن ليؤجَر في كلِّ شيء حتَّى «**اللُّقمة يضعها في فم امرأته**»[١]، من باب الممازحة والمؤانسة. حتَّى الصلة الجنسية المباحة، صلة الزوج بزوجه، كما جاء في «الصحيح»: «**وفي بُضْع أحدكم صدقة**». قالوا: يا رسول الله؛ أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**»[٢]. ومقتَضَى هذا أن تغدو الأرضُ كلُّها مسجدًا للمسلم، يتعبَّد فيه لربِّه، وتصبح أعماله كلُّها قربات إلى الله جَلَّ جلاله، فهو يشعر دائمًا أنَّه في محراب صلاة؛ لأنه أبدًا مع الله!

٤ ـ الاستمرار:

والخصيصة الرابعة هي: الاستمرار.

فإذا كانت الحياة الرُّوحيَّة تصحب المسلم أفقيًّا أو مكانيًّا في كل مجالات حياته، فإنَّها تصحبه كذلك رأسيًّا وزمانيًّا في جميع أوقاته، وأطوار حياته حتَّى يلقى ربَّه.

فإذا كانت بعض الديانات تكتفي من الإنسان أنْ يعبد ربَّه يومًا في الأسبوع، أو ـ على الأصح ـ ساعة من يوم، ثمَّ ينصرف عنه سائر الأسبوع إلى دنياه وشهواته ومشاغله الخاصَّة، فإنَّ الإسلام له موقف آخر.

إنَّ هناك عبادات تُطلب من المسلم في العمر مرة واحدة، مثل الحج، طلب افتراض وإلزام.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٢٩٥)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) رواه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، وأحمد (٢١٤٧٣)، عن أبي ذر.

QaradawiBooks.com

وهناك عبادات تُطلب من المسلم كل عام، مثل: صوم شهر رمضان، وزكاة الأموال الْحَوْلية.

وهناك عبادة تُطلب من المسلم كل أسبوع مرة، وهي صلاة الجمعة.

ولكن هناك ـ إلى جوار هذا كلِّه ـ عبادة يومية، تصل المسلم دائمًا بربِّه وتجعله على موعد معه، في كل يوم خمس مرات، تُذَكِّره إذا نسي، وتنبهه إذا غفل، وتقوِّيه إذا ضعف، وهي الصلوات المفروضة، التي اعتبرها الإسلام عمود الدين، والفيصل بين المسلم والكافر: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وهي عبادة تجب على المسلم في السَّفَر والحَضَر، وفي الصحة والمرض، وفي السلم والحرب، لا تسقط بحال من الأحوال.

ولهذا نجد في الفقه الإسلامي صلاة المسافر، بما فيها من قصر وجمع، وصلاة المريض، وفيها حديث: «**صَلِّ قائمًا، فإنْ لم تستطعْ فقاعدًا، فإنْ لم تستطعْ فعلى جَنْبٍ**»[1].

وصلاة الخوف ـ أو صلاة الحرب ـ وفيها جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡ ...﴾ [النساء: ١٠٢].

حتى في حالة التحام الصفوف، والتقاء السيوف بالسيوف، واحتدام المعركة بين الطرفين، يصلِّي المسلم كيفما استطاع، راجلًا أو راكبًا ولو

(١) رواه البخاري في الجمعة (١١١٧)، عن عمران بن حصين.

QaradawiBooks.com

بالإيماء، دون اشتراط ركوع أو سجود أو اتجاه إلى قِبْلة، وفي هذا يقول القرآن: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۞ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩].

هذا إلى أنَّ المسلم مأمور بذكر الله تعالى في كلِّ أحيانه، وعلى كل أحواله، سافرًا أو مقيمًا، صحيحًا أو سقيمًا، قائمًا أو قاعدًا أو على جنب. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]. غير الأذكار التي وردت بأسبابها ومناسباتها الخاصَّة، وقد أُلِّفت في ذلك كتب خاصَّة.

والمسلم مُطالَب بعبادة الله تعالى ما دام فيه عِرْق ينبض، ونَفَسٍ يتردَّد، حتَّى يوافيه الموت، وينتهي أجله المحدود: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩]، واليقين هنا: الموت، كما في قوله تعالى على لسان الكفار يوم القيامة: ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۞ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ [المدثر: ٤٦، ٤٧].

٥ ـ اليُسر والسعة:

والخصيصة الخامسة هي: اليُسر والسعة.

فالحياة الرُّوحيَّة في الإسلام ـ برغم امتدادها وشمولها واستمرارها ـ حياة سهلة مُيسَّرة، لا تُكلِّف الإنسان شططًا، ولا ترهقه عُسْرًا، ولا تُحمِّله من الآصار والأغلال ما يقصم ظهره، فهو غير مكلَّف إلا بما في وسعه، ولا مُطالَب إلا بما يستطيعه ويقدر عليه دون مشقة شديدة.

ولا غرو أنْ وجدنا القرآن ينفي الحرج عن هذا الدين نفيًا كليًّا، فيقول: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨].

QaradawiBooks.com

ويقول في ختام آية الطهارة وشرعية التيمم: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وفي ختام آية الصوم، وما ذكر فيها من الرخصة للمريض والمسافر من الفطر والقضاء، يقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ويذكر القرآن صفة النبي ﷺ، عند أهل الكتاب: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فهذا هو عنوان رسالته عند أهل الكتاب، وهو ناطق بما تحمله من السعة والتيسير، ورفع آصار التكاليف الثقيلة التي كانت على مَن قبلنا، ولهذا علَّم الله المؤمنين أنْ يقولوا في دعائهم: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وقد ورد في «الصحيح» أنَّ الله استجاب لهم هذا الدعاء[1].

ومن ثَمَّ وجدنا الحياة الرُّوحيَّة في الإسلام تتسع لكل مراتب النَّاس ودرجاتهم: الدنيا والوسطى والعليا، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٢٥)، وأحمد (٩٣٤٤)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

فهناك مَن يكتفي بأداء الفرائض، وقد يُقصِّر فيها، ويقتصر على ترك المحرَّمات وقد يقع فيها، وهو الظالم لنفسه.

وهناك مَن يلتزم بأداء الفرائض ولا يُقصِّر فيها، ويلتزم بترك المحرَّمات ولا يتهاون في الوقوع في شيء منها، وهو المقتصد.

وهناك مَن لا يكفيه ترك المحرَّمات، بل يتقي الشبهات استبراءً لدينه وعِرضه، بل يرتقي فيدع المكروهات، ثمَّ يرتقي فيدع ما لا بأس به حذرًا لما به بأس.

وفي جانب المأمورات لا يكفيه أداء الفرائض، ولا يشبع نهمته، فهو يتقرَّب إلى الله بالنوافل حتَّى يحبَّه، كما في الحديث القدسي الشهير: «**ما تقرَّب إليَّ عبدي بأفضل ممَّا افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتَّى أحبه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يبطشُ بها، وقَدَمَه التي يسعى بها، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذ بي لأُعيذنه**»[1].

فإذا كانت الفرائض توصل صاحبها إلى منزلة «القرب» من الله، فإنَّ النوافل ترقى به إلى منزلة «الحب» من الله تعالى، وهي منزلة السابق بالخيرات بإذن الله.

لقد وسعت الحياة الرُّوحيَّة الإسلامية الأعرابي الذي سأل النبي ﷺ عن فرائض الإسلام، فعرَّفه إيَّاها: من الصلوات الخمس، والزكاة المفروضة، وصوم رمضان، وهو يسأل في كلٍّ منها: هل عليَّ غيرها؟ قال: «**لا، إلا أن تَطَوَّعَ**». ثمَّ قال في النهاية بكل صراحة: واللهِ، لا أزيد

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

على هذا ولا أنقص. فقال النبي ﷺ: «**أفلح إنْ صدق**» أو «**دخل الجنة إنْ صدق**»(١).

ووسعت ـ مع هذا الأعرابي ـ العُبَّاد والزُّهَّاد من الصحابة مثل: أبي بكر، وعمر، وعليّ، وأبي ذر، وأبي الدرداء، وسلمان، وعبد الله بن عمرو، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

وتتَّسع الحياة الرُّوحيَّة في الإسلام للعصاة التائبين، ولا تغلق في وجوههم باب الرحمة، مهما تكنْ جرائمهم، وإسرافهم على أنفسهم، وفي هذا يقول القرآن: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فانظر كيف أمر اللهُ رسولَه أن يناديهم بهذا النداء اللطيف برغم معصيتهم وإسرافهم على أنفسهم: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ ليُشعرهم بأن صلتهم بربِّهم لم تنقطع، وأنهم ـ برغم ما ظلموا وأسرفوا ـ عباده، الذين لا يجوز لهم أن يقنطوا من رحمته أو يَيْأَسُوا من روحه، فإنَّه لا يقنط من رحمة ربِّه إلا الضَّالُّون، ولا يَيْئَسُ من رَوْح الله إلا القوم الكافرون.

وقد ذكر الله قومًا أشركوا وقتلوا وزنوا، ثمَّ تابوا فتاب الله عليهم: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۞ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

(١) رواه البخاري في الصوم (١٨٩١)، ومسلم في الإيمان (١١)، عن طلحة بن عبيد الله.

QaradawiBooks.com

وقرأ الإمام الحسن البصري رضي الله عنه قوله تعالى في سورة البروج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، فقال معجِّبًا من عظيم فضل الله تعالى وسعة عفوه ورحمته: قتلوا أولياءه، ثمَّ لم يوئسهم من التوبة[١]!

وفي قصة المرأة الغامدية التي اقترفت كبيرة الزنى وهي محصنة، وأصرَّت أن تتطهَّر بإقامة حدِّ الله عليها، مهما تكنْ شِدَّتُه، قال فيها النبي ﷺ: «**لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم**»[٢].

٦ ـ التوازن والاعتدال:

والخصيصة السادسة لهذه الحياة الرَّبَّانيَّة هي: التوازن والاعتدال.

فالحياة الرُّوحيَّة في الإسلام ـ كما شرعها الله ورسوله ـ حياة معتدلة، متوازنة ومتناسقة مع جوانب الحياة المادية الأخرى، فلا يُقبل فيها التنطُّع، ولا الغلو، الذي يجور به المسلم على نفسه، وعلى حقوق الآخرين.

وهذا العنصر مكمِّل لعنصر اليُسر والسهولة، الذي تحدثنا عنه، بل هو لازم من لوازمه، فإنَّ المكلَّف الذي يخرج عن حد الوَسَطيَّة والاعتدال، يدخل ـ لا محالة ـ في دائرة العُسْر والحرج.

لم يطلب الإسلام من المسلم أن يعتزل النَّاس والحياة، ليتعبَّد لله في صومعة أو يترهَّب في دَيْر، بل أنكر على الذين ابتدعوا الرهبانيَّة من عند أنفسهم، ثمَّ لم يرعَوْها حقَّ رعايتها.

---

(١) تفسير ابن كثير (٩٤/٦)، تحقيق سامي سلامة، نشر دار طيبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

(٢) رواه مسلم في الحدود (١٦٩٦)، عن عمران بن حُصَين.

QaradawiBooks.com

وأنكر الرسول الكريم ﷺ على مَن غَلا من أصحابه في العبادة أو الزهد، مبيِّنًا لهم طريق الاعتدال، ومنهج التوازن، وهو طريقه ومنهجه ﷺ. أي سُنَّته التي يجب اتِّباعها، ولا يجوز رفضها؛ ولهذا قال للثلاثة الذين سألوا عن عبادته من أزواجه، فلما عرفوها تقالُّوها «عَدُّوها قليلة» وقالوا: أين نحن من رسول الله، وقد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر؟ وقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر، ولا أفطر، وقال الثاني: وأنا أقوم الليل فلا أرقد، وقال الثالث: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. وسمع النبي ﷺ بمقالتهم فجمعهم، وخطب فيهم قائلًا: «**إنَّما أنا أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكنِّي أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوَّج النساء، فمن رغب عن سُنَّتي فليس منِّي**»(١).

إنَّ الحياة الرُّوحيَّة الإسلامية لا تقتضي من المسلم أن يديم صيام النهار، وقيام الليل، وبذلك يجور على حقِّ بدنه في الراحة، وحقِّ عينه في النوم، وحقِّ أهله في المؤانسة، وحقِّ مجتمعه في المعونة، وهذا ما أوصى به الرسول عليه الصلاة والسلام عبد الله بن عمرو، حين تفرَّغ للصيام والقيام والتلاوة، وغفل عن حقِّ نفسه، وحقِّ زوجه، وحقِّ زُوَّاره، فأمره النبيُّ بالاعتدال في ذلك قائلًا: «**فإنَّ لجسدك عليك حقًّا، وإنَّ لعينك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لزَوْرِكَ عليك حقًّا**»(٢).

والحياة الرُّوحيَّة في الإسلام لا تستوجب من المسلم أن يُحرِّم على نفسه طيِّبات الحياة الدنيا، كما صنعت المانوية في فارس، والبرهمية في الهند، والبوذية في الصين، والرواقية في اليونان، والرهبانية في الديانة النصرانية.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، كلاهما في النكاح، عن أنس بن مالك.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩)، كلاهما في الصيام، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

والقرآن الكريم في غير موضع منه، شدَّد الإنكار على الذين حرَّموا طيبات ما أحلَّ الله، وبيَّن لهم أنَّ الله تعالى خلق لهم ما في الأرض جميعًا، وما كان سبحانه ليخلقها لهم، ثمَّ يُحَرِّمها عليهم!

كلُّ ما طلبه منهم أن يتناولوها باعتدال، بلا إسراف ولا تقتير، وألَّا يعتدوا فيها على حقِّ أحد، وأن يشكروا نعمة الله فيها، بالاستعانة بها على طاعته وعدم استخدامها في معصيته، وإفساد أرضه.

يقول تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۞ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢].

ويقول: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [النحل: ١١٤]، ﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ [البقرة: ٦٠].

ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۞ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨].

فلا حرج على المسلم أن يستمتع ـ وهو في قمة ارتقائه الرُّوحي ـ بطيِّبات المأكل والمشرب، وطيِّبات الملبس والزينة، وطيِّبات المسكن والمأوى، وطيِّبات الحياة الزوجيَّة، وطيِّبات اللَّهو والترويح[1].

(١) انظر حديثنا عن هذه الطيبات في كتابنا: دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي صـ ٦٥ ـ ٧٩، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٣، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

QaradawiBooks.com

٧ ـ التنوع:

ومن خصائص الحياة الرُّوحيَّة في الإســلام: التنوع، فالمسلم الذي يعبد ربِّه ويتقرَّب إليه، ويغذي روحه بحبه، وقلبه بقربه، وعقله بمعرفته سبحانه، لا يحبس نفسه على نوع معيَّن من التعبد أو الجهاد الرُّوحي.

إنَّ أمامه فرصًا جمَّة، ومجالات رحبة، يصول فيها ويجول، ويجد كل إنسان فيها ما يشغل طاقته، ويشبع نهمته، وينقع غلته.

فقد نوَّع الإسلام في مطالبه الرُّوحيَّة من الإنسان المؤمن ما بين قول وعمل، وفعل وترك، وإلزام وتطوع، وعمل جارحة وعمل قلب، وما بين ليل ونهار، وسر وعلانية.

من عبادات الإســلام ما هو قولي كالذِّكْر وتــلاوة القرآن، وما هو فعلي كإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وما هو تركي كالصيام الذي هو إمساك وحرمان.

ومنها ما هو بدني خالص كالصلاة والصيام والجهاد بالنفس، وما هو مالي خالص كالزكاة والصدقات والجهاد بالمال.

وما هو جامع بينهما كالحج والعمرة، والجهاد بالنفس والمال معًا.

ومنها ما هو إيجاب، كفعل المأمــورات، فرائض لازمة أو نوافل مستحبة.

ولا ريب أنَّ الفرائض مُقدَّمة على النوافل، ولا يقبل الله النافلة حتَّى تؤدى الفريضة، والمحافظــة على أداء الفرائض تفضي بالإنســان إلى منزلة «القرب» مــن الله تعالى، والمحافظة على النوافــل ترقى به إلى منزلة «الحب» لله تعالى.

QaradawiBooks.com

وفي هذا جاء الحديث القُدُسي الذي رواه البخاري في «صحيحه»: «**ما تقرَّب إليَّ عبدي بأفضلَ ممَّا افترضتُه عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتَّى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصِر به، ويده التي يبطش بها...**»[(١)].

ومنها: ما هو سلب مثل: ترك المنهيات، مُحرَّمات كانت أو مكروهات.

وأوَّل ما يجب اجتنابه ـ بعد الشرك ـ هو الكبائر، ثمَّ يرتقي المرء، فيجتنب صغائر المحرمَّات، ثمَّ يتقي الشبهات، استبراءً لدينه وعِرضه، ثمَّ يرتقي فيجتنب المكروهات، ولو كانت كراهتها تنزيهية، ثمَّ يزداد ارتقاءً، فيتقي بعض الحلال، خشية أن يجرَّ إلى المكروه، فالشبهة، فالحرام، كما في الحديث: «**لا يبلغُ العبدُ أن يكون من المتَّقينَ حتَّى يدعَ ما لا بأسَ به حذرًا لما به البأس**»[(٢)].

وهذا الجانب التَّرْكي أو السلبي أمر مهم، وهو بمثابة التخلية قبل التحلية، أو إزالة الأنقاض قبل البناء، وفي الحديث: «**اتَّقِ المحارم تَكُنْ أعبدَ النَّاس**»[(٣)].

ومن الأعمال الرُّوحيَّة ما هو مختص بعضو واحد، كاللسان، الذي يقوم وحده بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والدعاء والاستغفار

(١) سبق تخريجه صـ٤٧.

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥١)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٢١٥)، والحاكم في الرقاق (٣١٩/٤)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٤٣٥)، عن عطية السعدي.

(٣) رواه أحمد (٨٠٩٥)، وقال مخرِّجوه: حديث جيد. والترمذي في الزهد (٢٣٠٥)، وقال: غريب. وأبو يعلى (٦٢٤٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٠)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

والتلاوة والصلاة على النبي، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومثل اليد التي يكتب بها المسلم العلم النافع، ويصافح بها المؤمنين، ويعمل بها في كسب العيش الحلال: «**ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإنَّ نبيَّ الله داودَ كان يأكلُ من عمل يده**»(١).

ومثل الرِّجْل التي يمشي بها إلى بيوت الله، وإلى صلة الأرحام، وألوان الطاعات المختلفة، وكذلك سائر الجوارح.

ومن الأعمال الرُّوحيَّة ما هو مختص بالعقل، مثل التفكير في مخلوقات الله تعالى وآلائه، ومنها: الإنسان نفسه: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

ومثل ذلك: التدبُّر لكتاب الله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وكذلك التفكر في طلب العلم، وفهمه وهضمه، وحل معضلاته.

ومنها ما هو من أعمال القلب مثل: الإخلاص، والمحبة، والرجاء، والخشية، والتوكل، والزهد، وغيرها من مقامات الصالحين.

ومن الضروري أن يعرف أنَّ الأعمال كلَّها لا تُقبل عند الله إلا بعمل قلبي أساسي وهو النيَّة المجردَّة لله تعالى، بأن يؤدي العمل خالصًا له، وابتغاء وجهه ومرضاته، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٢)، عن المقدام بن معديكرب.

QaradawiBooks.com

ومع هذا التنوُّع الرحْب في الأعمال، فهي ليســت في درجة واحدة، فهي متفاضلــة تفاضلًا كبيرًا، فالنوافل دون الفرائــض، وفرائض الكفاية دون فرائض العَيْن، وفرائض العَيْن المتعلِّقــة بحقِّ الفرد، دون الفرائض المتعلقة بحقِّ الجماعة.

والأعمال المقصــور نفعها على صاحبهــا مثل: الصــلاة، والصيام، والحج، والعمرة، ليســت كالأعمال التي يتعدَّى نفعهــا إلى الغير، وكلَّما اتسعت دائرة المنفعة بالفعل كانت قيمته أرفع ومثوبته أكبر[١].

ولهذا كان الجهاد في ســبيل الله «ذروة سنام الإسلام» لما وراءه من درء الخطر عن أُمَّة الإسلام، وإعلاءٍ لكلمة الله، وحماية لدعوة الله، ومن هنا كانت «الشهادة في ســبيل الله» أعلى وأفضل ما يتمناه مسلم لنفسه. فعن ســعد بن أبي وقاص: أنَّ رجلًا جاء إلى الصلاة والنبي ﷺ يصلي، فقال حين انتهى إلى الصف: اللهمَّ آتني أفضل ما تؤتي عبادك الصالحين! فلما قضى النبي ﷺ الصلاة قــال: «**مَنِ المتكلم آنفًا؟**». فقال الرجل: أنا، يا رسول الله. قال: «**إذن يُعقر جوادك وتستشهد في سبيل الله**»[٢].

وقد رأينا فقيهًا محدِّثًا مجاهدًا كبيرًا مثل: الإمام عبد الله بن المبارك، يكتب إلى صديقه وأخيه في الله العابد الزاهد الرَّبَّاني: الفُضَيْل بن عياض،

(١) راجع في هذا كتابنا: في فقه الأولويات صـ ٨٥ ـ ١٠٨، فصل: الأولويات في مجال العمل، صـ ١٠٩ ـ ١٣٢، فصل: الأولويات في مجال المأمورات، نشــر المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

(٢) رواه البزار (١١١١٣)، وأبو يعلي (٧٦٩)، وابن خزيمة في الصلاة (٤٥٣)، والحاكم في الإمامة (٢٠٧/١)، وصحَّحه على شــرط مســلم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٥٢٥): رواه أبو يعلى والبزار بإســنادين وأحد إســنادي البزار رجاله رجال الصحيح خلا محمد بن مسلم بن عائذ وهو ثقة. عن سعد بن أبي وقاص.

QaradawiBooks.com

وهو في أرض الرِّباط والجهاد، والفضيل في رحاب الحرمين يتنقَّل بين مكة والمدينة عابدًا متبتلًا، فأرسل إليه بقوله:

يا عابدَ الحَرَمَيْنِ لو أَبْصَرْتَنا ... لعلمتَ أنَّك بالعبادةِ تلعبُ!
مَن كان يخضِبُ خَدَّه بدموعِه ... فنُحورُنا بدمائنا تتخضَّبُ[1]

إنَّ ساحة العمل الرُّوحي فسيحة، وأنواعها كثيرة، ولكنَّ المؤمن البصير هو الذي يتخير منها ما يناسب حاله.

فلا ينبغي للغني أن يجعل أكبر همِّه في التعبُّد لله تعالى بصيام الاثنين والخميس، أو بصيام داود عليه السلام الذي كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، غافلًا عن أن العبادة اللائقة به قبل كل عبادة هي إنفاق المال في سبيل الله.

ولا ينبغي للطبيب أن يتعبَّد لله بالوعظ والإرشاد، وحوله من مرضي المسلمين مَن يحتاج إلى مَن يعالجه من أشدِّ الأمراض فتكًا، ومَن يُحرِّره من رِبْقة الأطباء المتاجرين بأسقام البَشر، والمستغلين لضرورات الخلق.

ولا ينبغي للإمام أو الحاكم أن يتعبد لله بالحج والعمرة كل عام، وهو مهمل لأمر رعيته، غافل عن إعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه، وعن تأديب الفُجَّار والْمُتَعَدِّين لحدود الله.

وهكذا يجب أن نعلم أنَّ أفضل العبادة بالنسبة لكلِّ إنسان ما كان أليق بحاله وألصق بمقدرته ونعم الله تعالى عليه.

* * *

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤٩/٣٢).

QaradawiBooks.com

الرسول هو المثل الأعلى للحياة المتوازنة المتكاملة

غير مرخصة للطباعة

- نعمة خلود القرآن.
- نعمة السيرة النبوية.
- المثل الأعلى للحياة المتوازنة المتكاملة.
- كلمة بليغة لابن القيم.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

نعمتان عُظميان:

من فضل الله على المسلمين، وتمام نعمته عليهم: نعمتان عظيمتان، تميَّزت بهما هذه الأُمَّة الخاتمة: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

نعمة خلود القرآن:

النعمة الأولى: هي خلود مصادر هذا الدين، وبقاؤها محفوظة بحفظ الله لها، فإنَّ هذه الأُمَّة هي الأُمَّة الأخيرة، التي حمَّلها الله آخر الرسالات، فليس بعد نبيها نبي، ولا بعد قرآنها كتاب، ولا بعد دينها شريعة. ولهذا لم يكل حفظ كتابها إلى أهلها كالكتب السابقة، بل تكفل بحفظه بنفسه، وقال في ذلك: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، والقرآن هو المصدر الأول لهذه الْمِلَّة، والمنبع الأول للعقيدة والشريعة والسلوك.

ولقد صدَّق الواقع التاريخي هذا الوعد الإلهي أعظم تصديق، فقد مضت أربعة عشر قرنًا أو تزيد على نزول هذا القرآن، وهو هو، كما أنزله الله، وكما تلاه رسوله على أصحابه، وكما كُتِبَ في عهد عثمان رضي الله عنه. تتناقله الأجيال، محفوظًا في الصدور، متلوًّا بالألسنة، مكتوبًا في المصاحف.

ولا يوجد كتاب يحفظه ـ عن ظهر قلب ـ عشرات الألوف، ومئات الألوف من أبنائه، إلا القرآن العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

QaradawiBooks.com

وحفظ القرآن ـ كما نبَّه الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ يتضمَّن حفظ السُّنَّة كذلك؛ لأن السُّنَّة هي البيان النظري والعملي للقرآن؛ لأن حفظ المبيَّن يتضمن حفظ البيان معه.

نعمة السيرة النبوية:

والنعمة الثانية: هي السيرة النبوية العاطرة، وهي سيرة متميزة لها خصائصها التي بيَّنها المحقِّقون من العلماء[١]، فهي سيرة علمية مدونة، وسيرة تاريخية ثابتة، وسيرة مكتملة الحلقات، من الولادة إلى الوفاة، وهي سيرة شاملة جامعة، تُجسِّد حياة النبي ﷺ في وقائع وأحداث، ناطقة معبرة، هذه الحياة المتكاملة المتوازنة، التي نجد فيها الإسلام حيًّا، والقرآن مفسَّرًا، والقيم الإسلامية تسعى بين النَّاس على قدمين، هذه الحياة هي التطبيق العملي للقرآن الكريم، كما قالت عائشة، وقد سُئلت عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت: كان خُلُقه القرآن[٢].

هذه الحياة هي التي يجد كل مسلم فيها أُسوته المثلى، ومثله الأعلى، فقد أدَّبه ربُّه، فأحسن تأديبه، وأنزل عليه الكتاب والحكمة، وعلَّمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيمًا، وامتنَّ به على المؤمنين، إذ بعثه رسولًا منهم، ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

---

(١) من أبرز ذلك: محاضرات العلامة سليمان الندوي، التي ترجمها من الأوردية إلى العربية العلامة محب الدين الخطيب، ونشرتها المكتبة السَّلَفية تحت عنوان: الرسالة المحمدية، وهو كتاب ينبغي أن يُقرأ.

(٢) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٦٠١)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

يقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولا يوجد عند اليهود ولا النصارى ـ ولا عند غيرهم من أصحاب الأديان الأخرى ـ مثل هذه السيرة الحية النابضة، الشاملة لكلِّ مراحل الحياة، وكلِّ جوانب الحياة، كما تُصوِّر ذلك كتب الشمائل النبوية، وكتب «الهَدْي النبوي»: في المأكل والمشرب، في الملبس والزينة، في النوم واليقظة، في الحَضَر والسَّفَر، في الضحك والبكاء، في الجد واللَّهو، في العبادة والمعاملة، في الدين والدنيا، في السلم والحرب، في التعامل مع الأقارب والأباعد، مع الأنصار والخصوم، حتَّى النواحي التي يُسمِّيها الناس: «خاصَّة» في معاشرة الزوجات، كلها مروية محفوظة في هذه السيرة الكاملة.

المثل الأعلى للحياة المتوازنة:

والحقُّ أنَّ المثل التطبيقي الأعلى للتكامل وللتوازن بين المثال والواقع، بين القلب والعقل، بين الإيمان والعلم، بين الرُّوح والمادة، بين الفردية والجماعية، بين حقِّ الرَّبِّ وحظِّ النَّفْس. وإعطاء كلٍّ منها حقَّه بلا طغيانٍ ولا إخسارٍ: هو رسول الله ﷺ، الذي أرسله الله رحمة للعالمين، وأنزل عليه القرآن هدى للناس وبيِّنات من الهدى والفرقان.

الرسول العابد الزاهد:

فنراه في مجال العبادة لربِّه، العابد الأول، الذي كانت قُرَّة عينه في الصلاة، وكان يقوم الليل حتَّى تتفطّر قدماه، ويبكي حتَّى تبلل دموعه لحيته، وتعجب زوجه عائشة من شدَّة تعبُّده وبكائه، وقد

QaradawiBooks.com

غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، فيقول لها: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[١].

وكان يصوم الاثنين والخميس من كلِّ أسبوع غالبًا، وأحيانًا يديم الصيام حتَّى يظن مَن حوله أنَّه سيصوم الدهر كله، وأحيانًا يواصل الليل بالنهار في الصيام، فيمضي يومين أو أكثر لا يتناول طعامًا، بعد الغروب، وهو ما نهى عنه أصحابه؛ ولهذا قالوا له: أتنهانا عن الوصال وتواصل؟ فقال: «**وأيكم مثلي؟ إنِّي أبيتُ يطعمني ربِّي ويسقيني**»[٢]. فكانت من خصوصياته ﷺ.

وكان دائم الذكر لله تعالى في كلِّ أحواله، وعلى كلِّ أحيانه، بقلبه ولسانه. وأذكاره وأدعيته ومناجاته لربِّه، يتجلى فيها أغنى قيم الصدق والإخلاص لله تعالى، والعبودية المتجرِّدة لربِّها، كما أنها تمثل أروع المعاني، وأوضح الطموحات التي ينبغي أن يَنْشُدها الإنسانُ الرَّبَّاني لنفسه، ولمن يحب، مصوغة في أحلى القوالب البلاغية، وأعذب الأساليب البيانية، التي تهزُّ الكينونة البَشرية من أعماقها، وهي وحدها مدرسة روحية فذة.

وقد حفلت بها كتب الحديث والسيرة، وأُلِّفت فيها كتب خاصَّة قديمًا[٣] وحديثًا، لعلَّ أحدثها كتاب شيخنا الشيخ محمد الغزالي: «فنُّ الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء».

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٣٧)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٢٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام الكتاب والسنة (٧٢٩٩)، ومسلم في الصيام (١١٠٣)، عن أبي هريرة.

(٣) مثل: عمل اليوم والليلة للنسائي ولابن السني، والأذكار للنووي، وشرحه لابن علان، والكلم الطيب لابن تيمية، والحصن الحصين لابن الجزري، وشرحه تحفة الذاكرين للشوكاني.

QaradawiBooks.com

وكان ﷺ، برغم تعبده لربِّه، واشتغاله بذكره، وقيامه الدائم بالدعوة إلى دينه، والجهاد في سبيله، دائم الخشية له سبحانه، كثير الاستغفار، كثير التوبة، وهذا من كمال عبوديتــه، وعظم مقام الألوهية عنده، وفي هذا كان يقول: «**إنَّه لَيُغانُ على قلبي، وإنِّي لأســتغفر الله في اليوم مائة مرة**»[١]، «**يا أيُّها الناس، توبوا إلى ربِّكم؛ فإنِّي أتوب إلى الله ٨ في اليوم مائة مرة**»[٢].

وكان ﷺ أزهد النَّاس في الدنيا، وأرضاهم باليسير منها، مع ما فتح الله له من الفتوح، وأفاء عليه من الغنائم، وبعد أن أصبح ســيد الجزيرة. ولكنَّه لقي ربَّه ولم يشبعْ من خُبْز الشَّــعير ثلاثةَ أيام تباعًا، وكان الشهر يمرُّ تلو الشــهر ولا يوقد في بيته نار، إنَّما عيشــه على الأسودين: التمر والماء. وكان ينــام على الحصير حتَّــى يؤثر في جَنْبَيْــه. ورآه عمر بن الخطاب يومًا كذلك، فبكى توجُّعًا له وإشفاقًا عليه، واقترح عليه بعضهم أن يهيِّئوا له فراشًا ألين من هذا، فقال لهم: «**ما لي وللدنيا؟ ما مَثَلي ومَثَلُ الدُّنْيا إلا كراكبٍ سارَ في يومٍ صائف، فاســتظلَّ تحت شجرةٍ ساعةً من نهارٍ، ثمَّ راح وتركها**»[٣].

الرسول الإنسان:

ولكنَّه ﷺ مع هذه الرُّوحانية العالية، في ذكره وشكره وحُسْن عبادته لربِّه، وفي زهادته في دنيا الناس، وعيشــه فيه بشــعور الغريب، وعابر

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٢) (٤١)، وأحمد (١٨٢٩١)، عن الأغر المزني.

(٢) رواه مسلم في الذكر (٢٧٠٢) (٤٢)، عن الأغر المزني.

(٣) رواه أحمد (٢٧٤٤)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح. وابن حبان في التاريخ (٦٣٥٢)، والحاكم في الرقاق (٣٠٩/٤)، وصحَّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

السبيل! لم يغفل الجوانب الأخرى من الحياة بما تفرضه من أعباء، وما تمثله من مطالب، لم ينسَ أنَّه إنسان وزوج وأب وجد، وقريب، وجار، وصديق، ورئيس، وقائد. وأن كل علاقة من هذه لها حقوقها.

ولهذا رأيناه إنسانًا يرضى كما يرضى البَشَر، ويغضب كما يغضب البَشَر، ويفرح كما يفرحون، ويحزن كما يحزنون.

ولكنَّه إذا رضي لم يُدخله رضاه في باطل، وإذا غضب لم يُخرجه غضبه عن الحقِّ، وإذا فرح لم يفرح بغير الحقِّ، وإذا حزن لم يُخرجه حزنه عن الصبر والرضا، ويشارك أصحابه في مسرَّاتهم، ولا يخرجه ذلك عن الوقار.

ويضحكه بعض أصحابه فيضحك، ويمزح أحيانًا، ولكن لا يقول إلا حقًّا، ويأذن للحبشة أن يرقصوا بحرابهم في مسجده، ويعرف طبيعة الأنصار، فيقول في عرس لأحدهم: «**أما كان معهم لهو؟ فإنَّ الأنصار يعجبهم اللَّهو**»[(١)]، ويسمح لجاريتين أن تغنيا في بيته في يوم عيد: «**حتى يعلم اليهودُ أن في ديننا فُسْحة، وأنِّي بُعِثتُ بحنيفيَّة سَمْحة**»[(٢)].

الزوج المثاليّ:

رأيناه زوجًا يحسن عشرة أزواجه، ويعدل بينهن فيما يقدر عليه، ويطيب أنفسهن، ويصالح بينهن، ويُقدِّر الظروف الخاصَّة لكلٍّ منهن، ويستمع أحيانًا إلى قصصهن وإن طالت، كما في حديث أم زرع

(١) رواه البخاري في النكاح (٥١٦٢) عن عائشة.

(٢) رواه أحمد (٢٤٨٥٥)، وقال مخرجوه: حديث قوي. وحسَّن إسناده الحافظ في التغليق (٤٣/٢)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

المشـــهور، وبرغم همومه ومشـــاغله التي تنوء بها الجبال، يداعب ويمازح، كما رأيناه يسابق عائشة، فتسبقه مرة، ويسبقها أخرى، فيقول لها: «**هذه بتلك**»[١].

الأب والجد:

رأيناه أبًا يحبُّ أبناءه وبناته، ويحـــرص على كل خير لهم في الدنيا والآخرة، مـــات ابنه إبراهيم، فحزن عليه، ودمعـــت عيناه، ولم يجد في ذلك ما ينافي الصبر والرضا، بل قـــال: «**تدمعُ العَيْن ويحزنُ القلب، ولا نقول إلا ما يُرضي الرَّبَّ، واللهِ، إنَّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»[٢].

وحيـــن أراد عليُّ بن أبـــي طالـــب ﷺ أن يتزوَّج علـــى فاطمة الزهراء ﷺ، ابنة أبي جهل، لعنه الله، غضب وقال: «**إنَّ فاطمة بَضْعة مِنِّي، وأنا أتخـــوف أن تُفتن في دينها، وإنِّي لســـت أُحرِّم حلالًا، ولا أحلُّ حرامًا، ولكـــن واللهِ، لا تجتمع بنت رســـول الله وبنت عدوِّ الله تحت رجلٍ واحدٍ أبدًا**»[٣].

رأيناه جدًّا يلاعب سبطيه: الحسن والحسين، ويوطئ لهما ظهره ليركباه، بأبي هو وأمي، ويركب أحدهما على ظهره الشـــريف مرَّة، وهو يصلِّي فيطيل الصـــلاة، حتَّى ظنَّ الصحابة الظنـــون، فلما فرغ

(١) رواه أحمد (٢٤١١٨)، وقال مخرجوه: إســـناده صحيح على شرط الشـــيخين. وأبو داود في الجهاد (٢٥٧٨)، وابن ماجـــه في النكاح (١٩٧٩)، وابن حبان في الســـير (٤٦٩١)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٣١)، عن عائشة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٠٣)، ومسلم في الفضائل (٢٣١٥)، عن أنس.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في فرض الخمس (٣١١٠)، ومســـلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٩)، عن المسور بن مخرمة.

QaradawiBooks.com

وسلَّم، سألوه عن سرِّ إطالة سجوده، فقال: «**إنَّ ابني ارتحلني** ـ أي: اتَّخذني راحلة وركوبة ـ **فكرهتُ أن أُعْجِلَه**»(١). أي أنَّه لم يشأ أن يقطع على الصبي لذته في امتطاء ظهر جده.

ويقول عن الحسن والحسين: «**إنَّ ابْنَيَّ هذين ريحانتاي من الدنيا**»(٢).

راعي حقوق الرحم والجوار والصداقة:

رأيناه يرعى حقَّ الرحم والقرابة، ولو كان أهلها مشركين، ويقول لقريش: «**إنَّ لكم رحمًا أبلها ببلالها**»(٣). وحين تمكَّن منهم يوم الفتح بعد طول ما جرَّعوه الصابَ والعلقم، قال لهم في تسامح القوي: «**اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء**»(٤). بل كان يكرم أقاربَ أبيه من بني النَّجَار، وأقارب أُمِّه من بني زُهْرة، مثل: سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه، الذي عُرِفَ بأنه خال رسول الله ﷺ، ولم يكن أخًا لأُمه، ولكن من بني عمومتها.

رأيناه يرعى حقَّ الجار، وإنْ ظلم وجار، وإنْ كان يهوديًّا من أهل الكتاب، ويقول في ذلك: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتَّى ظننتُ أنَّه سيورثه**»(٥).

---

(١) رواه أحمد (١٦٠٣٣)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح. والنسائي في التطبيق (١١٤١)، والحاكم في معرفة الصحابة (١٦٥/٣)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، عن شداد بن الهادِ.

(٢) رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٧٥٣)، عن ابن عمر.

(٣) رواه مسلم في الإيمان (٢٠٤)، عن أبي هريرة.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤١٢/٢)، عن ابن إسحاق: فحدثني بعض أهل العلم. تحقيق مصطفى السقا وآخرين، نشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٥)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٥)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

رأيناه صديقًا، يرعى حقوق الصداقة والصحبة؛ ولهذا غضب حين أغضب بعضهم أبا بكر، فقال: «**اتركوا لي صاحبي**»[١]، وقال: «**لو كنتُ متَّخِذًا من أُمَّتي خليلًا دون ربِّي، لاتَّخذتُ أبا بكر خليلًا، ولكنَّه أخي وصاحبي**»[٢].

وكان أوفى النَّاس لأصحابه، ولكلِّ مَنْ تربطه به أو بأهل بيته صلة، حتَّى كان يكرم بعض العجائز، ويبش لهن، ويهدي إليهن، فسُئل في ذلك، فقال: «**إنَّ هذه كانت صديقة خديجة، وإن حُسْن العَهْدِ من الإيمان**»[٣]!

رئيس الدولة:

رأيناه رئيسًا لدولة جديدة، تحيط بها العداوات من كلِّ جانب: وثنية، ويهودية، ونصرانية، فلم يشغله هم الجهاد والإعداد لمقاومة أعدائها، عن العناية بالشؤون الداخلية لأهلها، من بناء المسجد للصلاة، إلى إقامة السوق للتجارة. ومن إقامة العلاقات السياسية بين الطوائف التي تسكن المدينة وضواحيها، وهي دار الإسلام في ذلك الوقت، على أساس واضح مكتوب في وثيقة دستورية معروفة، إلى العناية بأمر هِرَّة حبستها امرأة حتَّى ماتت جوعًا، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض[٤]. ومن لقاء الوفود من أنحاء الجزيرة، وإرسال الرسل

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٦٤٠)، عن أبي الدرداء.

(٢) رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٦٥٦)، عن ابن عباس.

(٣) رواه الحاكم في الإيمان (١٥/١)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، فقد اتفقا على الاحتجاج برواته في أحاديث كثيرة، وليس له علة. ووافقه الذهبي، عن عائشة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في المساقاة (٢٣٦٥)، ومسلم في السلام (٢٢٤٢)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

إلى ملوك الأرض المعروفين، إلى الاهتمام بأمر أَمَة تأخذ بيده، وتمضي في طرقات المدينة، فلا يدع يـده من يدها «تواضعًا وحيـاءً منه» حتَّى تقضي حاجتها[١].

غير مرخصة للطباعة

الرسول القائد:

رأيناه قائدًا يخطِّط للمعارك قبل وقوعها، ويبعث الطلائع والعيون لاستطلاع أخبار العدو، ويقوم بعمل أول إحصاء للقوة الضاربة عنده، حتَّى يكون تخطيطه على أساسٍ علميٍّ مكينٍ، ويحثُّ على التدريب واستمراره، فهو دعامة القوة العسـكرية: «**أَلَا إنَّ القوة الرمي**»[٢]، «**مَن عَلِم الرمي ثمَّ تركه، فليس منَّا**» أو: «**فقد عصى**»[٣]. وهو مع قوَّة توكُّله على الله تعالى يلبس للحرب لُبُوسـها، حتَّى إنَّـه في إحدى المعارك ظاهر بين دِرْعَيْـن، ويُعلِّم أصحابه أن الحرب خَدْعـة، وأنَّ للعوامل النَّفْسـيَّة أثرها في كسـب المعارك، فلا بدَّ من العمـل على تخذيل الأعداء، وتفريق كلمتهم.

وهو يعتمد ـ بعـد الله تعالى ـ على حُسْـن التخطيط، والتنظيم، والإعـداد، و«التـكتيـك» حتَّى إنَّـه ليفاجئ أعـداءه بخـطط لـم يعهدوها، فيُربِكهم، ويعرف قدرات أصحابه، فيضع كُلًّا في موضعه المناسب.

ولا غرو أنَّه القائد الذي رأينا كبار القُوَّاد ـ مثل: أبي عبيدة، وسعد، وخالد، وعمرو، وغيرهم ـ تلاميذ بين يديه.

(١) رواه البخاري في الأدب (٦٠٧٢)، عن أنس.

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٩١٧)، وأحمد (١٧٤٣٢)، عن عقبة بن عامر.

(٣) رواه مسلم في الإمارة (١٩١٩)، عن عقبة بن عامر.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

العامل المتوكِّل:

رأيناه يراعي سُنن الله ويأخذ بالأسباب، ويعد العدة، ويتوقى الخطر، ويأمر بأخذ الحذر، ويعمل بالإحصاء، ويخطط للمستقبل، ويرتب ويفكر قدر ما يستطيع البَشَـر، ولكنه لا يغفل أبدًا عن التوكل على الله تعالى، ولا ينسى أن الأمر كله بيده، وخصوصًا ساعة الشدائد، وحصار الأزمات، فهنا تراه أقوى ما يكون ثقة بالله، واعتصامًا به، وفرارًا إليه.

فقد رأيناه خطَّـط ورتَّب ونظَّم كل ما يتعلـق بهجرته إلى المدينة، فلما وقف المشركون الذين يطاردونه على باب الغار الذي يختبئ فيه، وقال له صاحبه ورفيقه أبو بكر مشفقًا عليه: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا! قال في ثقة ويقين: «**يا أبـا بكر، ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثُهما؟**»[(١)]. ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

القائم بعمارة الأرض المستمتع بطيباتها:

ومن ناحية أخرى نجده ﷺ مع إقباله بكلِّيته على الآخرة، وإعراضه عن الدنيا وزينتها، وتصويره الدنيا بالنسـبة للآخرة، كما يجعل الإنسان إصبعه في اليـم: «**فلينظر بماذا يرجـع؟**»[(٢)]. لم يعش في الدنيا عيشـة الرهبان الرافضين لهـا، المعادين لكلِّ ما فيها، بـل كان يعلم أنَّ الدنيا مزرعة للآخرة، وأنَّ الإنسان مسـتخلَف فيها، وأنَّ له فيها مستقرًّا ومتاعًا إلى حين، وأنَّ عمـارة الأرض من مقاصد التكليـف، وأنَّ هذه العمارة ـ المتمثلـة في الزراعة، والغـرس، والصناعة، والاحتـراف، والتجارة،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٥٣)، ومسـلم (٢٣٨١)، كلاهما في فضائل الصحابة، عن أبي بكر الصديق.

(٢) رواه مسلم في صفة الجنة (٢٨٥٨)، والترمذي في الزهد (٢٣٢٣)، عن المستورد بن شداد الفهري.

QaradawiBooks.com

وغيرها ـ تعتبر عبادة لله، إذا صحَّت فيها النية، وأُديت على الوجه المطلوب، بلا خيانة ولا غش ولا إهمال؛ ولهذا أبقى أصحابه عليهم الصلاة والسلام في حِرَفِهم، ولم يخرج واحدًا منهم عن حرفته، ليتفرَّغ للعبادة أو لغيرها، إنَّما دعاهم أن يتقرَّبوا إلى الله بإحسان أعمالهم: «**إنَّ الله كتب الإحسانَ على كلِّ شيء**»[(١)]، «**إنَّ اللهَ يحبُّ إذا عمل أحدكم عملًا أن يُتْقِنَه**»[(٢)].

كما أنَّه ﷺ لم يكن يرفض طيِّبات الدنيا إذا تيسَّرت له، بل إذا وجدها تناولها وحمد الله تعالى. وإذا لم يجدها لم يتكلفها، ولم يحزن على فقدها.

كان يعجبه من الطعام اللَّحم، ويعجبه منه لحم الذراع، ويعجبه من الشراب اللَّبن، ويقول: «**مَن سقاه الله لبنًا فليقل: اللهمَّ بارك لنا فيه وزدنا منه**»[(٣)]، وكان يُستعذَب له الماء، ويوضع فيه بعض التمرات للتخفيف من ملوحته.

وكان يلبس من الثياب ما تيسر، لا يلتزم زيًّا أو هيئة معينة، ويختص بعض الحُلَل للجمعة وللعيدين، وكذلك للقاء الوفود، وكان يرجِّل شعره، ويتطيب، ويحب الطيب، وينظر في المرآة، ويقول: «**اللهم كما حسَّنتَ خَلقي، فحسِّن خُلقي**»[(٤)]، ويوصي أصحابه بالنظافة والتجمل،

---

(١) سبق تخريجه صـ٤٢.

(٢) رواه أبو يعلى (٤٣٨٦)، والطبراني في الأوسط (٨٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٣١٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٠)، عن عائشة.

(٣) رواه أبو داود في الأشربة (٣٧٣٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٥٥)، وقال: حديث حسن. وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٢٢)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٣٢٠)، عن ابن عباس.

(٤) رواه أحمد (٢٤٣٩٢)، وقال: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. والبيهقي في شعب الإيمان (٨١٨٤)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

حتَّى يكون أحدهم حسن المظهر، طيِّب الرائحة، ولا يحبُّ أن يدخل عليه أحدهم ثائر الرأس كأنَّه شيطان، ويقول: «**مَن كان له شعر، فليكرمه**»[١]، ويوصي بنظافة أشياء معينة في الجسم، مثل: الأسنان؛ ولهذا حضَّ على السواك: «**السواك مَطْهَرةٌ للفَمِ، مَرْضَاة للربِّ**»[٢]، كما أكَّد العناية بالجسم كلِّه: «**حقٌّ لله على كلِّ مُسلمٍ في كلِّ سبعةِ أيامٍ يومٌ يغسل فيه رأسَه وجَسَدَه**»[٣]. وضرب لأصحابه المثل في ذلك كله، وكان نِعْمَ الأُسوة لهم، وعلَّمهم أن الدين لا يضيق بالتجمل، و«**إنَّ الله جميل يحب الجمال**»[٤].

رأيناه يتداوى، ويأمر أصحابه بالتداوي، ويُعلِّمهم أن الله لم يُنزل داءً إلا أنزل له دواء، علمه مَن علمه، وجهله مَن جهله[٥]، ويصف بعض الأدوية لبعض الأمراض، حسبما تعلَّمه من البيئة غالبًا، ولكنه بجوار هذا استخدم الأدوية الرُّوحيَّة من الرقَى والدعاء، فرقى نفسه وغيره، وعلَّمهم كيف تكون الرقية، محذِّرًا من الرقَى الشِّرْكية.

والواقع أنَّ سيرته ﷺ ـ كما أشرنا إلى ذلك ـ سيرة جامعة شاملة، متوازنة، يجد فيها كل طالب أُسوة مكانًا للاتِّساء بها، والاقتداء بهداها.

---

(١) رواه أبو داود في الترجل (٤١٦٣)، والطحاوي في مشكل الآثار (٤٣٤/٨)، والطبراني في الأوسط (٨٤٨٥)، وحسن إسناده ابن حجر في فتح الباري (٣٦٨/١٠)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٥٠٠)، عن أبي هريرة.

(٢) علقه البخاري بصيغة الجزم قبل حديث (١٩٣٤)، ووصله أحمد (٢٤٣٣٢)، وقال مخرجوه: حديث صحيح لغيره. والنسائي في الطهارة (٥)، عن عائشة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٨٩٧)، ومسلم (٨٤٩)، كلاهما في الجمعة، عن أبي هريرة.

(٤) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، وأحمد (٣٧٨٩)، عن ابن مسعود.

(٥) رواه أحمد (٣٩٢٢)، وقال مخرجوه: صحيح لغيره. وابن ماجه في الطب (٣٤٣٨)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥١)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

فالفقير يجد فيها مجالًا للاقتداء، والاهتداء، يوم كان ﷺ يشدُّ الحجر على بطنه من الجوع، والغني يجد فيها قدوته يوم وسع الله عليه، ووضع بين يديه الأموال، منها ما هو للدولة، وما هو خاص له.

والحاكم والمحكوم، والمحارب والمسالم، والعزب والمتزوِّج، وذو الزوجة الواحدة، وذو الزوجات المتعددات، والأب والجد، والشاب والشيخ، والسليم والسقيم، والمقيم والمسافر، والمعافى والمبتلى، وغير هؤلاء وهؤلاء. كلُّهم يجدون في حياته الخصبة، وفي سيرته الحافلة، وفي سُنَّته الهادية، متسعًا لهم، ليقتدوا منها، ويهتدوا بنورها، في حالات الرخاء واليُسر، وفي حالات الشدة والعُسر، في حالات الانتصار، وفي حال الانكسار.

وعيب كثير من الفِرَق والطوائف من أهل الكلام والتصوُّف والفقه: أنهم يأخذون بجانب من سيرته أو سُنَّته ﷺ، ويغفلون جوانب أخرى، أو يضخمون ناحية على حساب نواح أخرى، ولو تأملوا وأنصفوا، وجمعوا الأمور بعضها إلى بعض، لوجدوا في هَدْيه عليه الصلاة والسلام الشمول والتوازن، والاعتدال والتكامل، الذي يسع كثيرًا ممَّا يُظنُّ أنَّه متعارض، وما هو بمتعارض، وإنَّما أراد الله لرسوله أن يكون الأسوة العليا في كل أمر من الأمور.

كلمة بليغة لابن القيم:

ويسرُّني أن أسجِّل هنا ما ذكره الإمام ابن القيم في كتابه: «عدة الصابرين، وذخيرة الشاكرين» حول هذا المعنى الكبير، فأفاض فيه على طريقته، وضرب الأمثلة، وذكر الأدلة، وأشبع القول بمناسبة احتجاج طائفة بسيرته وسُنَّته عليه الصلاة والسلام على فضل الفقير الصابر، واحتجاج معارضيهم بهما أيضًا على فضل الغني الشاكر.

QaradawiBooks.com

يقول ابن القيم:

«وما ينبغي أن يعلـــم أنَّ كلَّ خصلة من خصـــال الفضل قد أحلَّ الله رسوله ﷺ في أعلاها، وخصَّه بذروة سنامها، فإذا احتجَّت بحاله فرقة من فِرَق الأُمَّة التي تعرف تلك الخصال وتقاسمتها على فضلها على غيرها، أمكن للفرقة الأخرى، أن تحتج به على فضلها أيضًا.

فإذا احتجَّ به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف، احتجَّ به العلماء على مثل ما احتجَّ به أولئك.

وإذا احتجَّ بـــه الزُّهَّاد والمتخلفون عن الدنيا علـــى فضلهم، احتجَّ به الداخلون في الدنيا والولاية، وسياسة الرعية، لإقامة دين الله، وتنفيذ أمره.

وإذا احتجَّ به الفقير الصابر؛ احتجَّ به الغنيُّ الشاكر.

وإذا احتجَّ به أهل العبادة على فضل نوافل العبادة وترجيحها؛ احتجَّ به العارفون على فضل المعرفة.

وإذا احتجَّ به أرباب التواضع والحلـــم؛ احتجَّ به أرباب العزِّ والقهر للمُبْطِلِين والغلظة عليهم والبطش بهم.

وإذا احتجَّ به أرباب الوَقَـــار والهَيْبة والرزانة؛ احتجَّ به أرباب الخُلُق الحَسَن والمزاح المباح الذي لا يخرج عن الحقِّ، وحُسْن العِشْرة للأهل والأصحاب.

وإذا احتجَّ به أصحاب الصدع بالحقِّ والقول به في المشهد والْمَغِيب؛ احتجَّ به أصحاب المداراة والحياء والكـــرم أن يبادروا الرجل بما يكرهه في وجهه.

QaradawiBooks.com

وإذا احتج به المتورِّعون على الورع المحمود؛ احتجَّ به الميسِّـــرون المسهِّلون الذين لا يخرجون عن سَعَة شريعته ويُسرها وسهولتها.

وإذا احتجَّ به مَن صرف عنايته إلى إصلاح دينه وقلبه؛ احتجَّ به مَن راعى إصلاح بدنه ومعيشته ودنياه، فإنَّه ﷺ بُعِث لصلاح الدنيا والدين.

وإذا احتجَّ به مَن لم يعلق قلبُه بالأسباب ولا ركن إليها؛ احتجَّ به مَن قام بالأسباب ووضعها مواضعها وأعطاها حقَّها.

وإذا احتجَّ به مَن جاع وصبر على الجوع؛ احتجَّ به مَن شـــبع وشكر ربَّه على الشِّبَع.

وإذا احتجَّ به مَن أخذ بالعفو والصفح والاحتمال: احتجَّ به مَنِ انتقم في مواضع الانتقام.

وإذا احتجَّ به مَن أعطى لله ووالى لله؛ احتجَّ به مَن منع لله وعادى لله.

وإذا احتجَّ به مَن لم يدَّخر شـــيئًا لغدٍ؛ احتـــجَّ به من يدَّخر لأهله قوتَ سَنَةٍ.

وإذا احتجَّ به مَن يأكل الخَشِـــن من القوت والأُدْم كخُبز الشَّعِير والخل، احتجَّ به مَن يأكل اللذيذ الطيب كالشَّوِيِّ والحلوى والفاكهة والبِطِّيخ ونحوه.

وإذا احتجَّ به مَن سرد الصوم؛ احتجَّ به مَن سرد الفطر، فكان يصوم حتَّى يُقال: لا يُفطِر، ويفطر حتَّى يُقال: لا يصوم.

وإذا احتجَّ به مَن رغب عن الطيِّبات والمشتهَيات؛ احتجَّ به مَن أحبَّ أطيب ما في الدنيا، وهو النساء والطِّيب.

QaradawiBooks.com

وإذا احتجَّ به مَـن ألان جانبه وخفض جناحه لنسـائه؛ احتجَّ به مَن أدبهن وآلمهن وطلَّق وهجر وخيَّرهن.

وإذا احتجَّ به مَن ترك مباشرة أسـباب المعيشة بنفسه؛ احتجَّ به مَن باشرها بنفسه فآجر واستأجر، وباع واشترى، واستسلف وأدان ورهن.

وإذا احتجَّ به مَن يجتنب النسـاء بالكلية فـي الحيض والصيام؛ احتجَّ به مَن يباشر امرأته وهي حائض بغير الوطء، ومَن يُقَبِّل امرأته وهو صائم.

وإذا احتجَّ به مَن رحم أهل المعاصي بالقدر؛ احتجَّ به مَن أقام عليهم حدود الله، فقطع السارق، ورجم الزاني، وجلد الشارب.

وإذا احتجَّ به من أرباب الحكم بالظاهر؛ احتجَّ به أرباب السياسة العادلة المبنية على القرائن الظاهرة، فإنَّه حَبَس في تُهمة وعاقب في تُهمة».

إلى أن قال: «والمقصود بهذا الفصل: أنَّه ليس الفقراء والصابرون بأحقَّ به ﷺ من الأغنياء الشـاكرين، وأحقُّ النَّاس به أعلمُهم بسُنَّته، وأتبعهم لها»[1].

* * *

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم صـ ٢٦٨ ـ ٢٧١، نشر دار ابن كثير، دمشق، ط ٣، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

العلم بداية الطريق

- تمهيد.
- الفصل الأول: منزلة العقل والعلم في الإسلام.
- الفصل الثاني: أثر العلم في الإيمان والسلوك.
- الفصل الثالث: طلب العلم فريضة على كلِّ مسلمٍ.
- الفصل الرابع: حقوق العلم على أصحابه.
- الفصل الخامس: الصوفية والعلم الشرعي.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

تمهيد

من المعروف لدى المسلمين بالتواتر: أنَّ أول ما نزل من الوحي الإلهي على قلب محمد ﷺ هو: الآيات الأولى من سورة العلق التي لقنها أمين الوحي، والرسول الْمَلَكي جبريل عليه السلام إلى الرسول البَشري محمد عليه الصلاة والسلام في أول لقاء بينهما عند غار حراء.

كانت هذه الآيات هي قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۞ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

كان لأولية نزول هذه الآيات الكريمة دلالتها وإيحاؤها، فهي توحي بفضل العلم وتقديمه على غيره، فبه تبدأ الأمور، وتفتتح الأعمال. فقد أمرت الآيات بالقراءة مرتين: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾، ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾، والقراءة هي باب العلم ومفتاحه.

وقد نزل بعد ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۞ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۞ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۞ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ [المدثر: ١ ـ ٧].

فجاءت هذه الآيات آمرة بالعمل، سواء أكان عملًا متعلقًا بالناس: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾، أم بالربِّ تعالى: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾، أم بالنفس: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾. وسواء أكان عملًا متعلقًا بالفعل كالأشياء المذكورة أم بالترك، مثل: ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾، والمراد: سبب الرجز ـ وهو العذاب ـ والمراد: هجر

QaradawiBooks.com

المعصية، وكذلك ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ ثمَّ سياج ذلك كلِّه، وهو الصبر لله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾.

وبهذا فهمنا من القرآن: أنَّ العلم مُقدَّم على العمل؛ لأنَّه هو الذي يصحح العمل، ويرشد إلى شروطه وأركانه؛ ولهذا قيل: «العلم بغير عمل جنون، والعمل بدون علم لا يكون».

ولكننا نلاحظ أنَّ القراءة التي أمر بها القرآن في آياته الأولى ليست مجرد قراءة، إنَّما هي قراءة باسم الله، باسم ربِّنا الخالق، ومعنى أنها باسمه سبحانه: أنها بإذنه وبأمره، وأنها موجهة إليه، موصولة به، فليست باسم صنم يُعبد، ولا طاغوت يُطاع، ولا بَشر يُعظَّم من دون الله. فهي قراءة مؤمنة بالله، خالصة له، مقيَّدة بأحكامه.

وهذا يوحي: أنَّ العلم في الإسلام إنَّما هو علم في حضانة الإيمان؛ فالعلاقة بينهما علاقة التواصل والتلاحم، لا التقاطع والتنافر، علاقة التكامل، لا علاقة التعارض، وهذا ما سيظهر بجلاء في الصحائف التالية: أن العلم دليل الإيمان، كما أنَّه إمام العمل، والعمل تابعه.

لا عجب أن نبدأ بـ«العلم» في هذه السلسلة اهتداءً بالقرآن العزيز، واقتداءً بما فعله الإمام أبو حامد الغزالي في كتابيه: «الإحياء»، و«المنهاج»، فقد بدأ كلًّا منهما بـ«العلم»، وحتى تكون دعوتنا إلى الله دعوة على بصيرة وبيِّنة، كما قال الله ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ونختم هذا التمهيد بهذا الدعاء المأثور: «اللهم علِّمنا ما ينفعنا، وانفعْنا بما علَّمتنا، وزدْنا علمًا. نحمدُك اللهمَّ على كل حال، ونعوذ بك من حال أهل النار».

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الفصل الأول

منزلة العقل والعلم في الإسلام

فضل العقل في الإسلام:

لا يوجد دين غير الإسلام كرَّم العقل والفكر، وأشاد بأُولي الألباب والنُّهَى، ودعا إلى النظر والتفكر وحرَّض على التعقل والتدبر، وقرأ النَّاس في كتابه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، و﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ [الغاشية: ١٧]، و﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]، و﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، و﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، و﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ [الروم: ٨]، و﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، و﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

ومن أروع ما جاء في القرآن قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سبأ: ٤٦]؛ ومعناه: أنَّه لا يطلب منهم إلا خصلة واحدة، وهي أن يتوجَّهوا بعقولهم وقلوبهم إلى الله الذي يؤمنون به، وبخالقيَّته للكون وتدبيره لأمره، مخلصين في طلب الهداية إلى الحقيقة، بعيدًا عن تأثير «العقل الجمعي»، وعن الخوف من النَّاس أو المجاملة لهم، كل فرد مع صديقه ممن يثق به، ويطمئن إليه، أو يفكر وحده، وهو معنى قوله: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾، ثمَّ يتفكروا في أمر النبوة، وسيهديهم فكرُهم الحرُّ إلى الحقِّ.

QaradawiBooks.com

وقد اعتبر علماؤه أنَّ العقل مناط التكليف، ومحور الثواب والعقاب، كما قرَّروا أنَّ العقل أساس النقل، إذ لو لم يثبت وجود الله بالعقل، ويثبت صدق النبي بالعقل، ما ثبت الوحي، فالعقل هو الذي يثبت النبوة، ويثبت صدق النبي عن طريق المعجزة الدالة على صدقه دلالة عقلية، ثمَّ بعد ذلك يعزل العقل نفسه، ليتلقى عن الوحي الذي هو سُلْطة أعلى منه.

ومن هنا قرَّر المحقِّقون من علماء الإسلام: أنَّ إيمان المقلِّد المطلق غير مقبول؛ لأنَّه لم يُؤسَّس على برهان، ولم يقم على حجة بَيِّنة، بل على تقليد محض: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

والقرآن يطالب كلَّ ذي دعوى بإقامة البرهان على دعواه، وإلَّا اطُّرحت ورُفِضت؛ ولهذا قال في محاورة المشركين: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]، ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

وقال في محاجة أهل الكتاب: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

فالعقائد لا بدَّ أن تُؤسَّس على البراهين اليقينية، لا على الظنون والأوهام؛ ولهذا عاب الله المشركين بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

QaradawiBooks.com

ليس في الإسلام إذن ما عُرِفَ في بعض الأديان الأخرى من اعتبار الإيمان شيئًا خارج منطقة العقل ودائرة التفكير، وإنَّما يؤخذ بالتسليم المطلق، وإنَّ لم يرتضه العقل، أو يسانده البرهان، حتَّى شاع عندهم مثل هذا القول: «اعتقدْ وأنت أعمى»! أو «أغمضْ عينَيْك ثمَّ اتَّبِعْني!».

ويحرم على المسلم أن يتَّبع الظنون والأوهام، معطِّلًا الأدوات التي وهبه الله إيَّاها لتحصيل المعرفة الصحيحة، وهي: السمع، والبصر، والفؤاد؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]؛ قال العلماء في تفسير هذه الآية: إنَّ الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظنِّ الذي هو التوهم والخيال، وفي «الصحيحين»: «**إيَّاكم والظن؛ فإنَّ الظنَّ أكذب الحديث**»[(١)]، وفي «سنن أبي داود» وغيره: «**بئس مطية الرجل: زعموا**»[(٢)].

إنَّ تعطيل السمع والبصر والفؤاد ينزل بالإنسان من أُفق الإنسانية العاقلة إلى حضيض البهيمية الغافلة، بل يجعل الإنسان أضل سبيلًا من الأنعام؛ لأنها لم تؤت ما أوتي من قوى التمييز والإدراك، فكان جديرًا أن يكون من حطب جهنَّم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥١٤٣)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٢٣٤٠٣)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. وأبو داود في الأدب (٤٩٧٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٦٢)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٨٦٦)، عن أبي مسعود البدري أو حذيفة بن اليمان.

QaradawiBooks.com

لقد عاب القرآن على المشركين اتباعهم للظن في تكوين العقائد التي لا يغني فيها إلا اليقين القائم على البصيرة والبرهان. وفي ذلك يخاطبهم فيقول في شأن آلهتهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، ويقول في هذا السياق نفسه: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

وعاب على أهل الكتاب في قضية قتل المسيح ما عابه على الوثنيين، فقال: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۞ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨].

ولا يحلُّ لمسلم أن يأخذ فكرته عن الوجود: مبدئه ومنتهاه، وعِلَّته وأسراره، إلا عن ربِّ الوجود، فكلُّ ما يتَّصل بمسائل الغيب والعقيدة في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وغايات الحياة وأسرار الكون، ليس له مصدر إلا وحي الله المنزَّل على رسوله، المؤيَّد بالآيات البيِّنات، الدالة على صدق نبوته، القاطعة بصحة رسالته.

إنَّ مَن أراد أن يعرف فكرة صحيحة كاملة عن دقائق جهاز ما، وعن الغاية من صنعه، فلا بدَّ أن يأخذها من صانعه نفسه، والله تعالى هو صانع هذا الكون، علويه وسفليه، بمن فيه وما فيه، وما نبصره وما لا نبصره، وهو وحده القادر على أن يمدنا بالحقائق الصادقة عن هذا الوجود وأسراره وغاياته: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وكلُّ النظريات والفلسفات التي زعمت أنَّها فسَّرت الوجود وخباياه، والحياة وأسرارها، إنَّما هي فروض ظنية يضرب بعضها بعضًا، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

QaradawiBooks.com

فضل العلم والعلماء:

والقرآن الكريم أعظم كتاب أشاد بالعلم وأهله، ورفع قدر «أُولي العلم» و«العالمين»، ونوَّه بمكانة «الذين أُوتوا العلم»، كما بيَّن أنَّه أنزل كتابه وفصَّل آياته ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، كما بثَّ آياته في الآفاق وفي الأنفس لهؤلاء الذين يعلمون.

يقول تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فانظر كيف بدأ الله تعالى بنفسه، وثنَّى بملائكته، وثلَّث بأولي العلم، واستشهد بهم على أعظم قضايا الوجود، وهي قضية الوحدانية.

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وهو استفهام إنكاري معناه: نفي التسوية بين أهل العلم وأهل الجهل. كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۞ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۞ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۞ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٢].

فالجهل بمثابة العمى، والعلم بمثابة البصر، والجهل كالظلمة، والعلم كالنور، والجهل حرارة قاتلة، والعلم ظل ظليل، والجهل موت، والعلم حياة، ولا يمكن أن يستوي الضدان في هذا كله.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ أي لا يخشى اللهَ إلا العلماءُ الذين يعرفون مقامه، ويقدِّرونه حقَّ قَدره. والعلم الحقيقي هو الذي يورث الخشية.

وقد جاءت هذه الآية ـ أو هذا الجزء من الآية ـ بعد أن ذكر الله سبحانه بعض آياته في خلقه: في السماء، والماء، والنبات، والجبال،

QaradawiBooks.com

ومن الناس، والدواب، والأنعام. ممَّا يوحي بأنَّ العلماء المذكورين هم علماء الطبيعة، والكون، والأرض، والنبات، والإنسان، والحيوان. اقرأ قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢].

والأوفق بـ «العالمين» هنا: أنَّهم العلماء بالظواهر الكونية في الفلك وفي الأرض، والعلماء باختلاف الألسنة والألوان، أي علماء الكون، وعلماء الإنسان.

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٧]. فالأقرب أن القوم الذين يعلمون هنا: هم علماء الفلك والطبيعة الجوية، فهم أقدر النَّاس على معرفة أسرار الله تعالى واكتشاف سننه في جعل النجوم للاهتداء.

ومن هنا نرى أنَّ العلم الذي أشاد به القرآن ليس مقصورًا على علم الدين وحده، وإنْ كان علم الدين له الصدارة والأولوية؛ لأنَّه العلم الذي يتعلق بالمقاصد والغايات، وعلوم الدنيا تتعلق بالوسائل والآلات، ولكنها مهمة أيضًا لنماء الحياة وبقائها كما يريد الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

QaradawiBooks.com

منزلة العلم في حياة الأنبياء:

ومَن قرأ قصص الأنبياء في القرآن وجد أنَّ للعلم مكانًا في كل منها، وأنَّ العلم كان وراء كلِّ خير أو فضل أحرزه واحد منهم.

فآدم عليه السلام ـ أبو البَشـر ـ إنَّما فضَّله الله على الملائكة، وأظهر تفوقه عليهم، وأنَّه المرشح الصالح للخلافة في الأرض، بسبب «العلم» الذي علَّمه الله إياه، ولم يُعلِّمه للملائكة؛ ولهذا لما سـألهم عن أسماء الأشياء ـ والسـؤال عن الاسـم يتضمَّن السؤال عن المسـمى وخواصه ـ قالوا: ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ [البقرة: ٣٢، ٣٣].

وكذلك استطاع آدم أن يتطهر من ذنبه ـ حين أكل من الشجرة المنهي عنها ـ بما تعلَّمه من الكلمات التي تلقَّاها من ربِّه: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧].

ونوح ـ شيخ المرسـلين ـ نجد أثر العلم في حُسْـن دعوته لقومه، وجداله لهـم حتَّى أفحمهم. وقالـوا: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۞ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود: ٣٢ ـ ٣٤].

وإبراهيم ـ خليل الرحمن ـ آتاه الله الحُجَّة. فحاجَّ نمروذ فأسكته، وحاجَّ قومه فغلبهم. وقال لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: ٤٣].

QaradawiBooks.com

وقال تعالى في شأنه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ويوسف لما بلغ أشُدَّه آتاه الله حكمًا وعلمًا، وعلَّمه من تأويل الأحاديث وتعبير الرؤى، وكان هذا العلم سببًا في إخراجه من السجن، وكذلك كان العلم مؤهلًا لتوليه خزائن الأرض: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، فالحفظ يمثل العنصر الأخلاقي، والعلم يمثل العنصر المعرفي، وكلاهما يكمل الآخر، وكلاهما ضروري لكل مَن يتولى منصبًا قياديًّا.

ولقد برز يوسف في علم التخطيط الزراعي والاقتصادي في أيام الأزمات والمجاعات، ووضع خطة لخمسة عشر عامًا، وتولَّى هو الإشراف على تنفيذها بنفسه، فأنقذ الله به مصر وما حولها من محنة كادت تودي بها.

وقال الله في شأن موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ١٤].

ولما أعلم الله موسى أنَّ هناك رجلًا عنده من العلم ما ليس عنده، سافر إليه سفرًا طويلًا لقي فيها النصب والعناء، وطلب إليه أن يصحبه، بل أن يتبعه ليتعلم منه ممَّا علَّمه الله، وهو موسى الذي اصطفاه الله برسالاته وبكلامه، فاشترط عليه أن يصبر على ما يراه منه، ولا يبادره بالسؤال حتَّى يُبيِّن هو له، وقبل موسى هذا الشرط: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۝ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٦٦ ـ ٧٠].

QaradawiBooks.com

وفي قصة داود وسليمان قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النمل: ١٥، ١٦].

ونجد علم سليمان يتجلَّى في فهم كلام النملة مع النمل، وفي كلام الهدهد الذي أدلَّ عليه بالعلم، وقال له: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ [النمل: ٢٢].

وفي قصة سيلمان مع ملكة سبأ، نجد أنَّ الذي أحضر عرشها من اليمن إلى الشام قبل أن يرتدَّ إليه طرفه إنَّما هو: ﴿ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [النمل: ٤٠].

كما امتنَّ الله على داود بتعليمه صناعة الدروع: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وفي قصة طالوت بيَّن الله تعالى أنَّه اختاره لزعامة القوم وقيادتهم بسبب مؤهلاته العلمية والمادية: ﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقال عن المسيح عيسى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران: ٤٨].

وقال عن خاتم رسله محمد ﷺ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

السُّنَّة والعلم:

وجاءت الأحاديث النبوية، فأكَّدت ما جاء في القرآن من فضل العلم، ومنزلة العلماء، من ذلك ما رواه معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن يرد الله به خيرًا؛ يفقهه في الدين**»[(١)].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في فرض الخمس (٣١١٦)، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧)، عن معاوية.

QaradawiBooks.com

وعن أبي هريرة، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة**»(١).

وعنه مرفوعًا: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله، إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(٢).

فمن خصائص العلم: أن نفعه مستمر، وأن أجره دائم، وأنه باق للإنسان حتَّى بعد موته، قال الحافظ المنذري: «وناسخ العلم النافع له أجره وأجر مَن قرأه، أو نسخه، أو عمل به من بعده، ما بقي خطه والعمل به، لهذا الحديث وأمثاله. وناسخ غير النافع ـ ممَّا يوجب الإثم ـ عليه وزره، ووزر مَن قرأه، أو نسخه، أو عمل به من بعده، ما بقي خطه والعمل به»(٣).

وعن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «**مَن سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإنَّ العالِم ليستغفر له مَن في السماوات ومَن في الأرض، حتَّى الحيتان في الماء! وفضل العالِم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء. وإنَّ الأنبياء لم يوِّرثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما ورَّثوا العلم، فمَن أخذه أخذ بحظٍّ وافر**»(٤).

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٤٢٧)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الوصية (١٦٣١)، وأحمد (٨٨٤٤)، عن أبي هريرة.

(٣) المنتقى من الترغيب والترهيب (١٢٩/١)، حديث رقم (٦١)، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

(٤) رواه أحمد (٢١٧١٥)، وقال مخرجوه: حسن لغيره. وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢) كلاهما في العلم، وابن ماجه في المقدمة (٢٢٣)، وابن حبان في العلم (٨٨)، وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (٧٠٣): وصحَّحه ابن حبان والحاكم وغيرهما، وحسنه حمزة الكتاني، وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوى بها. عن أبي الدرداء.

QaradawiBooks.com

قال الإمام الغزالي: «ومعلوم أنَّه لا رتبة فوق رتبة النبوة، ولا شـرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة»[١]!

ويعلق على اسـتغفار مَن في السـماوات، ومَن في الأرض للعالِم فيقول: «وأي منصب يزيد على منصب مَن تشـتغل ملائكة السماوات والأرض بالاستغفار له؟ فهو مشغول بنفسه «أي بعلمه»، وهم مشغولون بالاستغفار له»[٢]!

وعن زر بن حبيش قال: أتيت صفوان بن عسال الـمُرَادي ﷺ قال: ما جاء بك؟ قلت: أنبط العلم. «يعني: أطلبه وأسـتخرجه». قال: فإنِّي سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: «**ما من خارج خرج مـن بيته في طلب العلم؛ إلا وضعت له الملائكة أجنحتها؛ رضًا بما يصنع**»[٣].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالِمًا، ومتعلمًا**»[٤].

والمراد بلعن الدنيا: ذمُّها، وهي ليست مذمومة لذاتها، فإنَّها مزرعة الآخرة، وهي دار الإيمان والعبادة والجهاد في سـبيل الله، وإنَّما تُذَمُّ من حيث إنَّها دار للكفر والشر وعبادة الطاغوت، ومن حيث إنَّها تشغل عن الله تعالى وعن الدار الآخرة؛ ولهذا استثنى الحديث من الذم كل ما يُذَكِّرُ الإنسـانَ بربِّهِ، ويصله بحبله، من ذكر الله، وما يحبُّه ويرضاه، من العلم

(١) إحياء علوم الدين (٥/١)، نشر دار المعرفة، بيروت.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) رواه أحمد (١٨٠٩٣)، وقال مخرجوه: إسناده حسن. وابن ماجه في المقدمة (٢٢٦)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٠٢)، عن صفوان بن عسال.

(٤) رواه الترمذي (٢٣٢٢)، وقال: حسـن غريب. وابن ماجه (٤١١٢)، كلاهما في الزهد، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٠٩)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

النافع والعمل الصالح، والمقصود بالعالِم والمتعلم: مَن يجمع بين العلم والعمل، فيخرج الجهلاء الذين لا يعلمون، والذين يعلمون ولا يعملون.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتَّى يرجع**»[(١)]، والمراد بسبيل الله: هو الجهاد.

وعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «**مَن جاء إلى مسجدي هذا، لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلّمه، فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله**»[(٢)]؛ لأنَّ كُلًّا من المتعلم والمجاهد يعمل لتكون كلمة الله هي العليا، هذا بقلمه، وهذا بسيفه.

كما حثَّت الأحاديث النبوية على إكرام أهل العلم وإعطائهم حقَّهم من الإجلال والتوقير، وحذَّرت من إضاعتهم وعدم المبالاة بهم.

فعن جابر، أنَّ النبي ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أُحُد ـ يعني: في القبر ـ ثمَّ يقول: «**أيهما أكثر أخذًا للقرآن؟**». فإذا أشير إلى أحدهما قدَّمه في اللَّحد[(٣)].

وعن عبادة بن الصامت، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ليس من أمتي مَن لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا**»[(٤)].

---

(١) رواه الترمذي في العلم (٢٦٤٧)، وقال: حسن غريب ورواه بعضهم فلم يرفعه. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٨): حسن لغيره.

(٢) رواه أحمد (٩٤١٩)، وقال مخرجوه: ضعيف. وابن ماجه في المقدمة (٢٢٧)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣١/١): هذا إسناده صحيح احتج مسلم برواته. وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٧).

(٣) رواه البخاري في الجنائز (١٣٤٣).

(٤) رواه أحمد (٢٢٧٥٥)، وقال مخرجوه: صحيح لغيره دون قوله: «ويعرف لعالمنا». والطحاوي في مشكل الآثار (٣٦٥/٣)، والحاكم في العلم (١٢٣/١)، وقال: ومالك بن خير الزيادي =

QaradawiBooks.com

مكانة العلم لدى سَلَف الأُمّة:

وقال عليٌّ رضي الله عنه وجهه لكُمَيْل بن زياد: يا كميل؛ العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق[١]. وقد شرح ابن القيم هذه الكلمات ـ المقتبسة من مشكاة النبوة ـ شرحًا مستفيضًا في «مفتاح دار السعادة»[٢].

وقال أبو الأسود: ليس شيء أعز من العلم؛ الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك[٣]! وهذا ما عبَّر عنه الشاعر فقال:

إنَّ الأكابرَ يحكمونَ على الوَرَى وعلى الأكابرِ يحكمُ العلماءُ[٤]

وسُئل ابن المبارك: مَن الناس؟ فقال: العلماء، قيل: فمَن الملوك؟ قال: الزُّهَّاد. قيل: فمن السِّفْلة؟ قال: الذين يأكلون الدنيا بالدين[٥]! وإنَّما لم يجعل غير العالم من الناس؛ لأنَّ الخاصية التي يتميَّز بها الإنسان عن البهيمة هي العقل، وهو إنَّما يظهر بالعلم.

وقال ابن عباس: تذاكر العلم بعض ليلة أحبُّ إليَّ من إحيائها[٦]!

= مصري ثقة، وأبو قبيل تابعي كبير. وقال الذهبي: مالك ثقة مصري. وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٦٤/١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٤٣)، عن عبادة بن الصامت.

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٨٤).

(٢) مفتاح دار السعادة (١٢٨/١)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) عيون الأخبار (١٣٧/٢)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.

(٤) ذكره الصفدي في الوافي بالوفيات (١٩٧/١٢)، ونسبه إلى الحسين بن إبراهيم ذو اللسانين، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، نشر دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

(٥) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٦٧/٨).

(٦) رواه عبد الرزاق في جامع معمر (٢٠٤٦٩).

QaradawiBooks.com

وقال الحسن: يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء، فيرجح مداد العلماء[١].

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]: إنَّ الحسنة في الدنيا هي العلم والعبادة، وفي الآخرة هي الجنَّة[٢].

وقيل لحكيم: أيُّ الأشياء تقتنى؟ قال: الأشياء التي إذا غرقت سفينتك سبحت معك! يعني: العلم[٣].

وقال الإمام أحمد: النَّاس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب؛ لأنَّ المرء يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرَّة أو مرَّتين، وحاجته إلى العلم بعدد الأنفاس[٤].

وقال بعض السَّلَف: مَن أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومَن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومَن أرادهما معًا فعليه بالعلم[٥].

* * *

(١) ذكره الثعالبي في التمثيل والمحاضرة صـ ١٦٥، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، نشر الدار العربية للكتاب، ط ٢، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

(٢) ذكره الآجري في أخلاق العلماء (٤٠/١)، نشر رئاسة إدارات البحوث، السعودية.

(٣) إحياء علوم الدين (٨/١).

(٤) مدارج السالكين (٤٤٠/٢).

(٥) مقدمة المجموع للنووي (٢٠/١)، نشر دار الفكر، نسبه للشافعي، بدون ذكر: «ومَن أرادهما معًا فعليه بالعلم».

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الفصل الثاني

أثر العلم في الإيمان والسلوك

العلم والإيمان في رحاب الإسلام:

إنَّ أوَّل آيات أنزلها الله من كتابه على رسوله، أشادت بالعلم والتعليم وأداة التعلم «القلم»؛ لأنَّها أمرت بالقــراءة، والقراءة مفتاح العلم، يقول تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۞ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

هكذا كان أوَّل أمر من الله في الإسلام: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، وقد كرَّره مرتين في هذه الآيات تأكيدًا لأهميته، ولكنَّها ليســت مجرَّد قراءة، ولكن قراءة باسم الربِّ الخالق، ومعنى أنَّها باســمه: أنها بإذنه وأمره ومباركته. فهي قراءة إيمانية. وهي تشير إلى أن العلم في الإسلام لا بدَّ أن يكون في حضانة الإيمان بالله، وبهذا يكون العلم أداة خير، لا معول هدم، يكون للتعمير لا للتدمير.

ولهذا رأينا سليمان عليه السلام حين جاءه عرش بلقيس ملكة سبأ من اليمن إلى الشــام في لمح البصــر أو هو أقرب، جاء بــه: ﴿ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ [النمــل: ٤٠]، كان موقفه موقف المؤمن الذي يعتبر العلم وثمراته نعمة من الله يجبُ أن تُقابَل بالشكر، يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠].

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

وكذلك كان موقف ذي القرنين حين بنى سدَّه العظيم، ليحجز شر يأجوج ومأجوج المفسدين في الأرض، ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [الكهف: ٩٨].

غير مرخصة للطباعة

العلم يهدي إلى الإيمان:

فالعلم والإيمان في الإسلام يسيران جنبًا إلى جنب؛ ولذا جمع القرآن بينهما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ [الروم: ٥٦]، ومثل ذلك قوله: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

بل يرتِّب القرآن الإيمان على العلم، فالمرء يعلم فيؤمن، ومقتضاه أنَّه لا إيمان قبل العلم. يقول تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٤].

وهكذا عطف القرآن هذه الثلاثة: «العلم، الإيمان، الإخبات» بالفاء، التي تفيد الترتيب والتعقيب كما يقول علماء العربية، فإذا كان الإخبات ثمرة الإيمان، فإنَّ الإيمان ثمرة العلم.

وفي هذا يقول القرآن أيضًا: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦].

ويُنوِّه القرآن بالذين ﴿ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ بأنهم هم الذين يعرفون قيمة القرآن ويؤمنون به، ويتأثرون بما فيه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۞ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

QaradawiBooks.com

ويقول عن القرآن أيضًا: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

العلم إمام العمل:

ومن فضائل العلم: أنَّه يسبق العمل، ويدلُّ عليه، ويرشد إليه، وهذا ما ذكره الإمام البخاري في كتاب: «العلم» من «صحيحه»، واستدل عليه بالقرآن من مثل قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، فبدأت الآية بالعلم بالتوحيد، وثنَّت بالاستغفار وهو عمل.

وفي حديث معاذ المشهور في فضل العلم الذي ذكره ابن عبد البر وغيره: «**تعلَّموا العلم، فإنَّ تعلُّمَه لله خشية، وطلبَه عبادة، ومدارستَه تسبيحٌ، والبحث عنه جهادٌ، وتعليمه مَن لا يعلمه صدقة، وبذلَه لأهله قُربة**». وفيه قال: «**وهو إمامٌ، والعمل تابعُه**»[(١)].

ومعنى هذا: «أنَّ العلم إمام العمل وقائد له، والعمل تابع له، ومؤتم به، فكلُّ عمل لا يكون خلف العلم مقتديًا به، فهو غير نافع لصاحبه، بل مضرَّة عليه، كما قال بعض السَّلَف: مَن عبدَ الله بغير علم كان ما يفسد أكثر ممَّا يصلح.

والأعمال إنَّما تتفاوت في القبول والردِّ بحسب موافقتها للعلم، ومخالفتها له، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود، فالعلم هو الميزان، وهو المحك.

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٣٨/١)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٦٩) موقوفًا. ورواه ابن عبد البر مرفوعًا (٢٦٨)، وقال عقبه: وهو حديث حسن جدًّا، ولكن ليس له إسناد قوي.

QaradawiBooks.com

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض في تفسير «أحسن العمل» قال: هو أخلص العمل وأصوبه. قالوا: يا أبا عليٍّ؛ ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إنَّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، حتَّى يكون خالصًا صوابًا، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السُّنَّة[1]. وقد قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه. وهو أن يكون موافقًا لسُنَّة رسول الله ﷺ، مرادًا به وجه الله، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم. فإنَّه إنْ لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده، وإنْ لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده، فلولا العلم لما كان عمله مقبولًا، فالعلم هو الدليل على الإخلاص، وهو الدليل على المتابعة. وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧]، وأحسن ما قيل في تفسير الآية أنَّه إنَّما يتقبل الله عمل مَنِ اتَّقَاهُ في ذلك العمل، وتقواه فيه: أن يكون لوجهه على موافقة أمره، وهذا إنَّما يحصل بالعلم. وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه، علم أنَّه أشرف شيء وأجلّه وأفضله. والله أعلم.

ولهذا قال المحقِّقون: إنَّ العامل بلا علم كالسائر بلا دليل. ومعلوم أنَّ عَطَب مثل هذا أقربُ من سلامته، وإن قُدِّر سلامته اتفاقًا نادرًا، فهو غير محمود، بل مذموم عند العقلاء.

(١) سبق تخريجه صـ٤٠.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «مَن فارق الدليل ضلَّ السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول.

قال الحسن البصري: العامل على غير علمٍ كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علمٍ ما يفسد أكثر ممَّا يصلح، فاطلبوا العلم طلبًا لا تضرُّوا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا لا تضرُّوا بالعلم، فإنَّ قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم، حتَّى خرجوا بأسيافهم على أُمَّة محمد ﷺ، ولو طلبوا العلم لم يدلَّهم على ما فعلوا»[(١)].

فمرتبة العلم من وجه: مرتبة المطاع المتبوع، المقتدَى به، المتَّبع حُكْمُه، المطاعُ أمرُه، ومرتبته من وجه آخر: مرتبة الدليل المرشِد إلى المطلوب، الموصِّل إلى الغاية.

فضل العلم على العبادة:

ومن فضائل العلم ما ثبت في الأحاديث: أنَّه أفضل من العبادة، وأن العالِم مُقدَّم على العابد.

ففي حديث أبي الدرداء المشهور: «**فضل العالِم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب**»[(٢)]. وكذلك جاء في حديث معاذ بن جبل[(٣)].

وفي حديث أبي أمامة: «**فضل العالِم على العابد كفضلي على أدناكم**»[(٤)].

(١) جامع بيان العلم (٥٤٥/١). وانظر: مفتاح دار السعادة (٨٢/١، ٨٣).

(٢) سبق تخريجه صـ٩٠.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٤٥/٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٤٢١٢).

(٤) رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٥)، وقال: حسن صحيح. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٤٢١٣).

QaradawiBooks.com

وفي حديث حذيفة[١] وسعد[٢]: «**فضل العلم أحبُّ إليَّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع**».

وذلك لأنَّ العلم يسبق العمل، ويدلُّ عليه، ويرشد إليه، فهو دليل له من ناحية، وشرط لقبوله من ناحية أخرى. فلا عمل بلا علم، وقد يوجد علم بلا عمل، والمعنى: أنَّه كلَّما وُجِدَ العمل لزم وجود العلم، بخلاف عكسه. ولهذا قيل: العلم بدون عمل جنون، والعمل بدون علم لا يكون.

ومن ناحية أخرى فضّل العلم على العبادة؛ لأنَّ نفع العلم متعد، ونفع العبادة قاصر، فالعبادة إنَّما تنفع صاحبها، والعلم ينفع الكافة.

ثم إنَّ نفع العبادة ـ غالبًا ـ ينتهي بالفراغ منها، ولكن نفع العلم يبقى إلى ما شاء الله؛ ولهذا عُدَّ في الأمور الباقية للإنسان بعد موته، فإذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من أشياء معروفة منها: علم يُنتفع به من بعده[٣].

وعلى قدر المنتفعين بعلمه يكون أجره، فكلما اهتدى به مهتد إلى طريق الخير، واسترشد به مسترشد في معرفة الحلال من الحرام، والهدى من الضلال، كان له أجره، كما جاء في الحديث: «**من دَلَّ على خير، فله مثل أجر فاعله**»[٤].

---

(١) رواه البزار (٢٩٦٩)، والطبراني في الأوسط (٣٩٦٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢١١/٢)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (١٠٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٧٨): رواه الطبراني في الأوسط والبزار، وفيه عبد الله بن عبد القدوس، وثقه البخاري وابن حبان، وضعفه ابن معين وجماعة.

(٢) رواه الحاكم في العلم (٩٢/١)، وصحَّحه على شرط الشيخين.

(٣) سبق تخريجه صـ٩٠، وفيه: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله، إلا من ثلاث**».

(٤) رواه مسلم في الإمارة (١٨٩٣)، وأحمد (١٧٠٨٤)، عن أبي مسعود الأنصاري.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ولأنَّ العلم إمـــا فرض عَيْن، وإمَّا فرض كفايـــة، وكلاهما أفضل من الاشتغال بالنوافل.

ولأنَّ العلم من صفات الله تعالى، والعمـــل من صفات المخلوقين؛ فهو هنا يتخلَّق بخُلق من أخلاق الله تعالـــى، إن صحَّ التعبير، أو يتَّصف بصفة من صفاته، واسم من أسمائه الحسنى.

ولأنَّ العلم هو الذي يكشـــف الغوامض من المسائل، ويفصل في دقائق الأمور، كما رأينا في حديث الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل رجلًا عابدًا هو أعبد أهل الأرض في زمنـــه: هل له من توبة؟ فقال له: لا توبة لك، فقتله، وأكمل به المائة، ثمَّ سأل رجلًا عالِمًا، هو أعلم أهل الأرض في زمنه: هل له من توبة؟ فقال له: نعـــم. وأمره أن ينتقل من القرية الظالمة الفاسدة إلى قرية أخرى صالحة[١].

ولأنَّ العلم هو الذي يُبيِّن الحقَّ من الباطل في الاعتقادات، والصواب من الخطأ في المقولات، والمســـنون من المبتدَع في العبادات، والحلال من الحرام في التصرفات، والصحيح من الفاسد في المعاملات، والفضيلة من الرذيلة في السلوكيات، والمقبول من المردود في المعايير، والراجح من المرجوح في الأقوال والأعمال[٢].

وبدون العلم يمكن أن يعتقد المرء الباطل وهو يحسبه حقًّا، ويرتكب البدعة، وهو يظنها سُنَّة، ويتورط في الحرام، وهو يتوهمه حلالًا، ويسقط في حمأة الرذيلة، وهو يتصوَّرها فضيلة؛ ولهذا كان من الأدعية المأثورة:

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٠)، ومســـلم في التوبة (٢٧٦٦)، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) انظر كتابنا: في فقه الأولويات صـ ٤٩، ٥٠.

QaradawiBooks.com

«اللهم أرنا الحقَّ حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه». حتَّى لا يكون المرء ممن ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

وقد حذَّرت الأحاديث الصحاح من فئة من الناس، «**يحقِر أحدُكم صلاته إلى صلاتهم، وصيامه إلى صيامهم، وقراءته إلى قراءتهم**»، ولكنهم «**يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يَمْرُقون من الدين كما يَمْرُق السهم من الرَّمِيَّة**». ومعنى قوله: «**لا يجاوز حناجرهم**»: أن القرآن لا تفقهه عقولهم وقلوبهم؛ لأنه مجرد ألفاظ وأصوات تخرج من حناجرهم، فآفتهم ليست في ضمائرهم ونيَّاتهم، بل في عقولهم وأفهامهم! ولهذا وُصِفوا بأنهم: «**يدعون أهل الأوثان، ويقتلون أهل الإسلام**»[(١)]! وهؤلاء هم الخوارج الذين حاربهم عليُّ بن أبي طالب والصحابة معه. ولهذا جاء في حديث معاذ المشهور في فضل العلم: أنَّه إمام والعمل تابعه[(٢)].

وذكر الإمام البخاري في كتاب: «العلم» من «صحيحه»: أن العلم يسبق العمل، واستدلَّ لذلك بالقرآن والحديث.

وقال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: مَن عمل على غير علم، كان ما يفسد أكثر ممَّا يصلح[(٣)]!

ومن المعروف: «أنَّ كثيرًا من الأئمة صرَّحوا بأنَّ أفضل الأعمال بعد الفرائض طلب العلم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٤)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٤)، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٣٨/١).

(٣) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٣٢)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١٠٩/١).

QaradawiBooks.com

فقال الشَّافعي: ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم، وهذا الذي ذكر أصحابه عنه أنَّه مذهبه[١].

وكذلك قال سفيان الثوري[٢]، وحكاه الحنفية عن أبي حنيفة.

وأمّا الإمام أحمد: فحُكِيَ عنه ثلاث روايات؛ إحداهن: أنَّه العلم. فإنَّه قيل له: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك: أجلس باللَّيل أنسخ أو أُصلِّي تطوعًا؟ قال: نسخك تعلم به أمور دينك، فهو أحبُّ إليَّ. وذكر الخلال عنه في كتاب: «العلم» نصوصًا كثيرة في تفضيل العلم، ومن كلامه فيه: النَّاس إلى العلم أحوجُ منهم إلى الطعام والشراب.

والرواية الثانيــة: أنَّ أفضل الأعمال بعد الفرائــض صلاة التطوع، واحتجَّ لهذه الرواية بقوله ﷺ: «**واعلمــوا أن خير أعمالكم الصلاة**»[٣]. وبأنَّه أوصى مَن سأله مرافقته في الجنَّة بكثرة السجود وهو الصلاة[٤]. وكذلك قوله في الحديث الآخر: «**عليك بكثرة السجود؛ فإنَّك لا تسجدُ لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحطَّ عنك بها خطيئة**»[٥]. وبالأحاديث الدالة على تفضيل الصلاة.

والرواية الثالثة: أنَّه الجهاد، فإنَّه قال: «**لا أَعْدِلُ بالجهادِ شيئًا. ومَن ذا يطيقه؟**»[٦]. ولا ريب أنَّ أكثر الأحاديث في الصلاة والجهاد.

---

(١) رواه البيهقي في المدخل إلى السنن (٤٧٥).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٦٣/٦).

(٣) رواه أحمد (٢٢٣٧٨)، وقال مخرجوه: صحيح. ابن ماجه (٢٧٧)، والدارمي (٦٨١)، كلاهما في الطهارة.

(٤) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٩)، وأبو داود في قيام الليل (١٣٢٠)، عن ربيعة بن كعب الأسلمي.

(٥) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٨)، عن ثوبان.

(٦) إشــارة إلى حديث أبي هريرة قال: قيل للنبي ﷺ: ما يعدل الجهاد في سبيل الله ﷻ؟ قال: =

QaradawiBooks.com

وأمَّا مالك. فقال ابن القاسم: سمعت مالكًا يقول: إنَّ أقوامًا ابتغوا العبادة، وأضاعوا العلم، فخرجوا على أُمَّة محمد ﷺ بأسيافهم، ولو ابتغوا العلمَ لحَجَزَهم عن ذلك.

قال مالك: وكتب أبو موسى الأشعريُّ إلى عمر بن الخطاب: أنَّه قرأ القرآن عندنا عددُ كذا وكذا. فكتب إليه عمر أن افرض لهم من بيت المال. فلما كان في العام الثاني كتب إليه أنَّه قد قرأ القرآن عندنا عدد كثير ـ لأكثر من ذلك ـ فكتب إليه عمر أن امحُهم من الديوان؛ فإنِّي أخاف من أن يُسْرع الناسُ في القرآن أن يتفقَّهوا في الدِّين، فيتأوَّلوه على غير تأويله!

وقال ابن وهب: كنتُ بين يدي مالك بن أنس، فوضعت ألواحي، وقمت إلى الصلاة (يعني: النافلة، كما يدلُّ السياق). فقال: ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي تركته.

قال شيخنا: وهذه الأمور الثلاثة التي فضَّل كل واحد من الأئمة بعضها، وهي: الصلاة، والعلم، والجهاد. هي التي قال فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لولا ثلاث في الدنيا لما أحببتُ البقاء فيها: لولا أن أحمل أو أجهز جيشًا في سبيل الله، ولولا مكابدة هذا الليل، ولولا مجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما يُنتقَى أطايب التمر، لما أحببتُ البقاء.

فالأوَّل: الجهاد. والثاني: قيام الليل. والثالث: مذاكرة العلم. فاجتمعت في الصحابة بكمالها، وتفرَّقت فيمن بعدهم.

= «لا تستطيعونه». قال: فأعادوا عليه مرَّتين، أو ثلاثًا كل ذلك يقول: «لا تستطيعونه». وقال في الثالثة: «مَثَل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صيام، ولا صلاة، حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى». رواه مسلم في الإمارة (١٨٧٨).

QaradawiBooks.com

وقد حكى ابن القيم ما ذكره أبو نعيم وغيره عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**فضل العلم خير من نفل العمل، وخير دينكم الورع**»(١). وقد روي هذا مرفوعًا من حديث عائشة رضي الله عنها(٢). وفي رفعه نظر».

قال: «وهذا الكلام هو فصل الخطاب في هذه المسألة، فإنَّه إذا كان كلٌّ من العلم والعمل فرضًا، فلا بدَّ منهما كالصوم والصلاة. فإذا كانا فضلين ـ وهما النفلان المتطوع بهما ـ ففضل العلم ونفله خير من فضل العبادة ونفلها؛ لأنَّ العلم يعم نفعه صاحبه والناس معه، والعبادة يختص نفعها بصاحبها، ولأنَّ العلم تبقى فائدته وعلمه بعد موته، والعبادة تنقطع عنه»(٣).

ومن وجوه فضل العلم على العبادة التي ذكرها العلَّامة ابن القيم في «مفتاح دار السعادة»: أنَّه يدلُّ صاحبه على العمل الأفضل عند الله، وإنْ كان أقلَّ من غيره مشقة، فصاحب العلم أقل تعبًا ومعاناةً، وهو أكثر مثوبة وأجرًا! قال: واعتبر هذا بالشاهد، فإن الصُّنَّاع والأُجراء يعانون الأعمال الشاقة بأنفسهم، والأستاذ المعلِّم يجلس يأمرهم وينهاهم، ويريهم كيفية العمل، ويأخذ أضعاف ما يأخذونه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى، حيث قال: «**أفضل الأعمال: إيمان بالله، ثمَّ الجهاد**»(٤)، فالجهاد فيه بذل النفس، وغاية المشقة، والإيمان علم القلب وعمله وتصديقه، وهو أفضل الأعمال، مع أنَّ مشقة

(١) سبق تخريجه صـ١٠٠.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٨٨٧)، موقوفًا على عائشة.

(٣) مفتاح دار السعادة (١١٩/١، ١٢٠).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة: أي العمل أفضل؟ فقال: «إيمان بالله ورسوله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله».

QaradawiBooks.com

الجهاد فوق مشـقته بأضعاف مضاعفة؛ وهذا لأنَّ العلـم يعرِّف مقادير الأعمـال ومراتبها، وفاضلها مـن مفضولها، وراجحهـا من مرجوحها، فصاحبه لا يختار لنفسـه إلا أفضل الأعمال. والعامـل بلا علم يظنُّ أنَّ الفضيلة في كثرة المشقة، فهو يتحمَّل المشاق وإنْ كان ما يعانيه مفضولًا، ورُبَّ عملٍ فاضلٍ، والمفضول أكثر مشقة منه.

واعتبر هذا بحال الصِّدِّيق أبي بكر رضي الله عنه فإنَّه أفضل الأُمَّة. ومعلوم أن فيهم مَن هو أكثر عملًا وحَجًّا وصومًا وصلاةً وقراءةً منه. قال أبو بكر بن عياش: ما سـبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه[١]! وهذا موضوع المثل المشهور:

مَن لي بمثـل سـيرك المدلَّل؟ تمشي رويدًا وتجي في الأول[٢]!

العلم دليل السلوك:

وليس العلم مطلوبًا لمعرفة الأحكام الظاهرة في الفقه فقط، كما قد يظنُّ الكثيرون، بل هو مطلوب لسلوك الطريق إلى الله أيضًا، بل ربَّما كان طلبه هنا أشد وألزم، لدخول الأوهام والأهواء والتلبيسات على الإنسان في هذا الجانب أكثر من غيره.

نرى الإمام الغزالي في مقدمة كتاب: «الإخلاص» من «الإحياء» بعد أن بيَّن ضرورة تصحيح النيَّـة وإخلاص العبادة لله ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينـة: ٥]. يقول رحمه الله: «وليت شـعري كيف يصحح نيَّته مَن لا يعرف حقيقة النيَّـة، أو كيف يخلص مَن صحح النِّيَّة

(١) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١٢٧)، من قول بكر بن عبد الله المزني.

(٢) مفتاح دار السعادة (٨٢/١).

QaradawiBooks.com

إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟ أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقَّق معناه؟ فالوظيفة الأولى على كلِّ عبد أراد طاعة الله تعالى: أن يتعلم النيَّة أولًا لتحصل المعرفة، ثمَّ يصحِّحها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص، اللَّذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص»[1].

ثم نرى الغزالي يعود، فيتحدَّث عن أثر النيَّة في أقسام الأعمال من طاعات ومعاصٍ ومباحات، ويبدأ بعلاقتها بقسم المعاصي فيقول: «اعلم أنَّ الأعمال، وإن انقسمت أقسامًا كثيرة من فعل وقول، وحركة وسكون، وجلب ودفع، وفكر وذكر ـ وغير ذلك ممَّا لا يُتصوَّر إحصاؤه واستقصاؤه ـ فهي ثلاثة أقسام: معاصٍ، وطاعات، ومباحات.

«القسم الأوَّل» المعاصي: وهي لا تتغيَّر عن موضعها بالنية، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله ﷺ: «**إنَّما الأعمال بالنيَّات**». فيظن أنَّ المعصية تنقلب طاعة بالنية، كالذي يغتاب إنسانًا مراعاة لقلب غيره، أو يطعم فقيرًا من مال غيره، أو يبني مدرسة أو مسجدًا أو رباطًا بمال حرام؛ وقصده الخير. فهذا كلُّه جهل، والنيَّة لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلمًا وعدوانًا ومعصية. بل قصدُه الخيرَ بالشَّرِّ ـ على خلاف مقتضى الشرع ـ شرٌّ آخر، فإنْ عرفه فهو معاند للشرع، وإن جهله فهو عاصٍ بجهله؛ إذ طلب العلم فريضة على كلِّ مسلم، والخيرات إنَّما يُعرف كونها خيرات بالشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيرًا؟ هيهات! بل المروِّج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى؛ فإنَّ القلب إذا كان مائلًا إلى طلب الجاه واستمالة قلوب النَّاس وسائر حظوظ النَّفْس، توسَّل الشيطانُ به إلى التَّلْبيس على الجاهل؛ ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: ما عُصِيَ

(١) إحياء علوم الدين (٣٦٢/٤).

QaradawiBooks.com

الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل! قيل: يا أبا محمد؛ هل تعرف شيئًا أشدّ من الجهل؟ قال: نعم، الجهل بالجهل. وهو كما قال؛ لأنَّ الجهل بالجهل يسدُّ بالكلية باب التعلم، فمَن يظن بنفسه أنَّه عالِم فكيف يتعلم؟

وكذلك أفضل ما أُطِيعَ الله تعالى به: العلم! ورأس العلم: العلم بالعلم، كما أنَّ رأس الجهل: الجهل بالجهل. فإنَّ مَن لا يعلم العلم النافع من العلم الضارّ، اشتغل بما أكبَّ النَّاس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم، والمقصود أنّ مَن قصد الخير بمعصية عن جهل، فهو غير معذور، إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام، ولم يجد بعد مهلة للتعلم. وقد قال الله سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وقال النبي ﷺ: «**لا يعذر الجاهل على الجهل، ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله، ولا للعالم أن يسكت على علمه**»(١).

ويَقْرُبُ من تقرُّب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام: تقرُّبُ العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار؛ المشغولين بالفسق والفجور، القاصرين هممهم على مباراة العلماء، ومباراة السفهاء، واستمالة وجوه الناس، وجمع حطام الدنيا، وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين، فإنَّ هؤلاء إذا تعلَّموا كانوا قُطَّاع طريق الله تعالى! وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائبًا عن الدَّجَّال! يتكالب على الدنيا، ويتَّبع الهوى، ويتباعد عن التقوى، ويستجرئ النَّاس بسبب

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٥٣٦٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٥١): فيه محمد بن أبي حميد وقد أجمعوا على ضعفه؛ بلفظ: «لا ينبغي للعالم أن يسكت على علمه، ولا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله». عن جابر بن عبد الله.

QaradawiBooks.com

مشـــاهدته على معاصي الله تعالى. ثمَّ قد ينتشـــر ذلـــك العلم إلى مثله وأمثاله، ويتخذونه أيضًا آلة ووســـيلة في الشر واتباع الهوى، ويتسلسل ذلك، ووبال جميعه يرجع إلى المعلِّم الذي علَّمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشـــاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله، ومن مطعمه وملبسه ومسكنه، فيموت هذا العالِم وتبقى آثار شره منتشرة في العالَم ألف سنة مثلًا وألفي ســـنة، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه! ثمَّ العجب من جهلـــه، حيث يقول: «**إنَّما الأعمـــال بالنيَّات**». وقد قصدتُ بذلك نشـــر علم الدين؛ فإن اســـتعمله هو في الفســـاد؛ فالمعصية منه لا مِنِّي، وما قصدتُ به إلا أن يستعين به على الخير. وإنَّما حبُّ الرئاسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يُحسِّن ذلك في قلبه، والشيطان بواسطة حبِّ الرئاسة يُلبِّس عليه: وليت شِـــعري ما جوابه عمن وهب سيفًا من قاطع طريق، وأعدّ له خيلًا وأسبابًا يســـتعين بها على مقصوده؛ ويقول: إنَّما أردتُ البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة، وقصدتُ به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله تعالى، فإنَّ إعداد الخيل والرباط والقُوَّة للغزاة من أفضل القُربات، فإن هـــو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي. وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى»[1].

العلم والمال:

لقد بيَّن حديـــث النبي ﷺ ـ الذي رواه أحمـــد، والترمذي، عن أبي كبشـــة الأنماري ـ أنَّ للعلم أثره في سلوك صاحبه، وقد قسَّم النَّاس إلى أصنافٍ أربعة بالنظر إلى موقعهم من العلم والمال.

(١) إحياء علوم الدين (٤/٣٦٢ ـ ٣٦٩).

QaradawiBooks.com

يقول الحديث: «**إنَّما الدنيا لأربعةِ نفرٍ: عبدٌ رزقه الله مالًا وعلمًا؛ فهو يتَّقي فيه ربَّه، ويصلُ فيه رحمَه، ويعلم لله فيه حقًّا؛ فهذا بأفضلِ المنازل. وعبدٌ رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالًا، فهو صادق النية، يقول: لو أنَّ لي مالًا لعملتُ بعمل فلان، فهو بنيَّتِه، فأجرهما سواء! وعبدٌ رزقه الله مالًا، ولم يرزقه علمًا، يخبط في ماله بغير علم، ولا يتَّقي فيه ربَّه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًّا؛ فهذا بأخبث المنازل! وعبدٌ لم يزرقه الله مالًا ولا علمًا، فهو يقول: لو أنَّ لي مالًا لعملتُ فيه بعمل فلانٍ، فهو بِنَيَّتِه، فوزرُهما سواءٌ**»[1].

قسم الحديث النَّاس وحظوظهم في الدنيا إلى أربعة أصناف:

الصنف الأول ـ وهو أفضلهم ـ: مَن أوتي علمًا ومالًا، والمقصود بالعلم هنا: نور البصيرة، وحُسْن الإدراك، والمعرفة الراسخة، التي تضيء لصاحبها الطريق، وتُبيِّن له العواقب، فنَفَعَه العلمُ بأن دلَّه على أنَّ المال وسيلة لا غاية، وأنَّه مُستخلَف فيه، وأنَّ لله فيه حقًّا ثابتًا، فاتَّقى فيه ربَّه، ووصل فيه رحمَه، فأحسن بذلك إلى نفسه، وأحسن إلى النَّاس بعلمه وماله، فهو كما قال الحديث: «**بأفضل المنازل**».

والصنف الثاني: يلي الأوَّل في المرتبة، وهو: مَن أُوتي علمًا، ولم يؤت مالًا، فهو لم ينفق ولم يتصدَّق، ولم يصل الرحم بالفعل، وإنَّما فعل ذلك بالنِّيَّة التي علم الله صدقها منه. والنيَّة ليست مجرد خاطرة طائرة تمرُّ بالبال، كشرارةٍ لامعةٍ ثمَّ تنطفئ، بل هي خطٌّ نفسيٌّ عميق، يجعل صاحبه يعيش بهذا الأمر، حالِمًا به، راغبًا فيه، حريصًا عليه، فالنيَّة

(١) رواه أحمد (١٨٠٣١)، وقال مخرجوه: حسن. والترمذي (٢٣٢٥)، وقال: حسن صحيح. عن أبي كبشة الأنماري.

QaradawiBooks.com

هي عقد القلب على العمل؛ لهذا استوى في الأجر هو وصاحب العمل، كما صرَّح الحديث: «**فهما في الأجر سواء**». وإنَّما سبب ذلك هو علمه ومعرفته، ممَّا يدلُّ على أهمية المعرفة في السلوك الأخلاقي، فلا فضيلة بلا معرفة، كما لا عبادة بلا علم.

والصنف الثالث: من أُوتي مالًا، ولم يؤت علمًا، أي لم يؤت العلم النافع الذي يورث الخشية، وينير البصائر، ويحرك العزائم لفعل الخير، وإنْ كان صاحبه يحمل أرقى الشهادات، فهذا أسوأ النَّاس منزلة، كما جاء في نص الحديث: «**فهذا بأخبث المنازل**»، وإنَّما نزل به إلى هذا الدرك جهله وحرمانه من العلم، فلم يعلم لله في ماله حقًّا، ولم يصل فيه رحمه، ولم يحسن به إلى غيره، ولم يتَّقِ فيه ربَّه، فكان ماله وغناه طريقًا إلى هلاكه، فلو عدمه لكان خيرًا له، ولكنه للأسف، أُعطِيَ ما يتزوَّد به للجنة، فكان زاده إلى النار.

والصنف الرابع والأخير: مَن لم يؤت مالًا ولا علمًا، ولكنَّه لجهله وعمى قلبه، عاش وفي نيته أن لو كان له مال لأنفقه في الشهوات والمعاصي، مثل ذلك الغني الجاهل، فهو يليه في الرتبة، ويساويه في الوزر بنيته الجازمة: «**فوزرهما سواء**»، وهذا هو الأحمق حقًّا، فقد خسر الآخرة، ولم يكسب الدنيا، بخبث نيَّته، وسوء قصده، وأشقى الناس: مَن اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة.

قال ابن القيم معقبًا على الحديث: «فقسم السعداء قسمين، وجعل العلم والعمل بموجبه سبب سعادتهما، وقسم الأشقياء قسمين، وجعل الجهل، وما يترتب عليه سبب شقاوتهما، فعادت السعادة بجملتها إلى العلم وموجبه. والشقاوة بجملتها إلى الجهل وثمرته»[1].

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٨٠).

QaradawiBooks.com

العلم يثمر اليقين والمحبة:

ومن فضل العلم: أنَّه يثمر اليقين، الذي بـــه حياة القلب وطمأنينته، وبه مدح الله المتَّقين المهتدين بكتابـــه: حيث قال: ﴿ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ٤]، وهم الذيـــن فصَّل الله لهم الآيات، ســـواء أكانت آيات تنزيلية مسطورة، أم آيات تكوينية منظورة، يقول تعالى: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٧].

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢].

﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٤].

وأثنى الله على خليله إبراهيم بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥].

وذَمَّ مَنْ لا يقين عنده بقوله: ﴿ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٢].

ولقد جعـــل القرآن اليقين أحد عنصرين يرتقي الإنســـان بهما إلى الإمامة في الدين، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

والإنســـان إذا كان إيمانه ويقينه مزعزعًا، ناوشـــته الشبهات من كل جانب، وعرضت له الشكوك عن يمين وشـــمال، وذلك لضعف علمه، وقِلَّة بصيرته، فيغدو كالريشة في مهبِّ الريح، لا تستقر على حال.

أمَّا صاحب اليقين، فهو ـ لرسوخه في علمه، وقوة إيمانه ـ كالطود الراسي، لا يتزعزع ولا يتزلزل، ولا تؤثر فيه رياح الشكوك والشبهات، بل هو لـــو وردت عليه من الشُّـــبَه بعدد أمواج البحـــر ـ كما قال ابن القيم ـ ما أزالت يقينه، ولا قدحت فيه شكًّا؛ لأنَّه قد رسخ في العلم،

QaradawiBooks.com

فلا تستفزه الشـــبهات، بل إذا وردت عليه ردَّها حرس العلم وجيشه مغلولة مغلوبة.

وإنَّما سميت الشبهة شبهة، لاشـــتباه الحقِّ بالباطل فيها، فإنَّها تلبس ثوبَ الحقِّ على جسم الباطل، وأكثر النَّاس أصحاب حُسْن ظاهر، فينظر الناظر فيما ألبســـته من اللِّبـــاس، فيعتقد صحتها، وأمَّـــا صاحب العلم واليقيـــن، فإنَّه لا يغتر بذلك، بـــل يجاوز نظره إلـــى باطنها، وما تحت لباسها، فينكشف له حقيقتها.

ومثال هـــذا: الدرهم الزائف، فإن يغتر به الجاهـــل بالنقد، نظرًا إلى ما عليه من لباس الفضة، والناقد البصير يجاوز نظره إلى ما وراء ذلك، فيطلع على زيفه، فاللَّفظ الحســـن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللِّباس من الفضة على الدرهم الزائف، والمعنى كالنحاس الذي تحته.

وإذا تأمَّل العاقل الفطـــن هذا القدر وتدبُّـــره، رأى أكثر النَّاس يقبل المذهب والمقالة بلفظ، ويردُّها بعينها بلفظٍ آخـــر... وكم رُدَّ من الحقِّ بتشنيعه بلباس من اللَّفظ قبيحٍ»[1].

إنَّ صاحب العلم واليقين، الذي رزقـــه الله البصيرة النافذة، والنور الكاشف، لا يلتبس عليه الحقُّ بالباطل، ولا تروج عنده الشبهات، كما لا تغريه الشهوات، فهو مزوَّد بسلاحين قويين يرد بهما جيوش الباطل، فهو يرد جيش الشهوات بسلاح الصبر، وجيش الشبهات بسلاح اليقين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٤٠، ١٤١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

قال ابن القيم: «واليقين والمحبة هما ركنا الإيمان، وعليهما ينبني، وبهما قوامه، وهما يمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية، وعنهما تصدر، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال، وبقوتهما قوتها، وجميع منازل السائرين، ومقامات العارفين، إنَّما تفتح بهما، وهما يثمران كل عمل صالح، وعلم نافع، وهدى مستقيم.

قال شيخ العارفين الجنيد: اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يتحول، ولا يتغير في القلب[١].

وقال سهل: حرام على قلب أن يشمَّ رائحة اليقين، وفيه سكون إلى غير الله[٢]!

وقيل: من علاماته الالتفات إلى الله في كلِّ نازلة، والرجوع إليه في كل أمر، والاستعانة به في كلِّ حال، وإرادة وجهه بكل حركة وسكون.

وقيل: إذا استكمل العبد حقيقة اليقين صار البلاء عنده نعمة، والمحنة منحة، فالعلم أول درجات اليقين، ولهذا قيل: العلم يستحملك واليقين يحملك. فاليقين أفضل مواهب الربِّ لعبده، ولا تثبت قَدَم الرِّضا إلا على درجةِ اليقين»[٣].

واليقين إنَّما هو علم راسخ في القلب لا يعتريه شك ولا وهم، وهو قابل للزيادة والترقي من علم اليقين، إلى عَيْن اليقين، ثمَّ إلى حقِّ اليقين.

---

(١) الرسالة القشيرية (٣١٩/١)، تحقيق الإمام الأكبر عبد الحليم محمود ود. محمود بن الشريف، نشر دار المعارف، القاهرة.

(٢) المصدر السابق (٣١٨/١).

(٣) مفتاح دار السعادة (١٥٤/١، ١٥٥).

QaradawiBooks.com

فأنــت إذا أخبرك جماعة من الثقات بأنَّ صديقك رجع من ســفره، وهو قادم إليك، فخبرهم هذا يورث عندك علم يقين بقدومه. فإذا كلَّمك بالهاتف «التليفون» وقال: أنا قادم إليك، فقد أصبح عندك عَيْن اليقين، فإذا قدم عليك بالفعل، وتلاقت الوجــوه وتصافحت الأيدي، فهذا هو حقُّ اليقين.

ومن هنا وجدنا خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يسأل ربَّه أن يريه كيف يُحيي الموتى، لينتقل من علم اليقين إلى عَيْن اليقين، أو إلى حقِّ اليقين: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ولقد أســرى الله بعبده محمد ﷺ من المســجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثمَّ عرج به إلى الســماوات العلا، ليريه من آياته، ويشهده من ملكوته ما آمن به يقينًا من طريق الوحي، فيزداد يقينًا مع يقين، كما قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ [الإسراء: ١].

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۞ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۞ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۞ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۞ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۞ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۞ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١١ ـ ١٨].

يؤكد ما ذكرنــاه: أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لعبادتــه، الجامعة لمحبته، وإيثار مرضاته، المستلزمة لمعرفته، ونصب للعباد علمًا لا كمال لهم إلا به، وهــو أن تكون حركاتهم كلهــا موافقة على وفــق مرضاته ومحبته. ولذلك أرسل رســله، وأنزل كتبه، وشرع شــرائعه، فكمال العبد ـ الذي

QaradawiBooks.com

لا كمال له إلا به ـ أن تكون حركاته موافقة لما يحبه الله منه ويرضاه له. ولهذا جعل اتباع رسوله دليلًا على محبته. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١]، فالمحبُّ الصادق يرى خيانة منه لمحبوبه: أن يتحرَّك بحركة اختيارية في غير مرضاته، وإذا فعل فعلًا ممَّا أبيح له بموجب طبيعته وشهوته تاب منه، كما يتوب من الذنب. ولا يزال هذا الأمر يقوى عنده حتَّى تنقلب مباحاته كلها طاعات، فيحتسب نومه وفطره وراحته، كما يحتسب قومته وصومه واجتهاده. وهو دائمًا بين سرَّاء يشكر الله عليها وضرَّاء يصبر عليها، فهو سائر إلى الله دائمًا في نومه ويقظته.

قال بعض العلماء: الأكياس عاداتهم عبادات الحمقى، والحمقى عباداتهم عادات.

وقال بعض السلف: حبَّذا نوم الأكياس وفطرهم، يغبنون به سهر الحمقى وصومهم، فالمحبُّ الصادق إنْ نطق نطق لله وبالله، وإن سكت سكت لله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فسكونه استعانة على مرضاة الله، فهو لله وبالله ومع الله.

ومعلوم أنَّ صاحب هذا المقام أحوج خلق الله إلى العلم، فإنَّه لا تتميَّز له الحركة المحبوبة لله من غيرها، ولا السكون المحبوب له من غيره، إلا بالعلم، فليست حاجته إلى العلم كحاجة مَن طلب العلم لذاته، ولأنَّه في نفسه صفة كمال، بل حاجته إليه كحاجته إلى ما به قوام نفسه وذاته.

ولهذا اشتدت وصاة شيوخ العارفين لمريديهم بالعلم وطلبه، وأنَّه مَنْ لم يطلب العلم لم يفلح. حتَّى كانوا يعدون مَن لا علم له من السفلة.

QaradawiBooks.com

قال ذو النون، وقد سئل: مَنِ السفلة؟ فقال: مَن لا يعرف الطريق إلى الله تعالى ولا يتعرفه!

وقال أبو يزيد: لو نظرتم إلى الرجل، وقد أُعطي من الكرامات حتَّى يتربَّع في الهواء، فلا تغتروا به، حتَّى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود ومعرفة الشريعة.

وقال أبو حمزة البزَّاز: مَنْ علم طريق الحقِّ سهُل عليه سلوكَه، ولا دليلَ على الطريق إلا متابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله.

وقال محمد بن الفضل الصوفي الزاهد: ذهاب الإسلام على أيدي أربعة أصناف من الناس: صنف لا يعملون بما يعلمون، وصنف يعملون بما لا يعلمون، وصنف لا يعملون ولا يعلمون، وصنف يمنعون النَّاس من التعلم.

قلت (ابن القيم): **الصنف الأول**: مَنْ له علم بلا عمل، فهو أضر شيء على العامة، فإنَّه حجة لهم في كل نقيصة ومنحسة.

والصنف الثاني: العابد الجاهل، فإن النَّاس يحسنون الظنَّ به لعبادته وصلاحه، فيقتدون به على جهله، وهذان الصنفان هما اللَّذان ذكرهما بعض السَّلَف في قوله: احذروا فتنة العالِم الفاجر، والعابد الجاهل، فإنَّ فتنتهما فتنة لكلِّ مفتون! فإنَّ النَّاس إنَّما يقتدون بعلمائهم وعُبَّادهم، فإذا كان العلماء فجرة، والعُبَّاد جهلة، عمَّت المصيبة بهما، وعظمت الفتنة على الخاصَّة والعامَّة.

والصنف الثالث: الذين لا علم لهم ولا عمل، وإنَّما هم كالأنعام السائمة.

QaradawiBooks.com

والصنف الرابع: نواب إبليس في الأرض، وهم الذين يثبِّطون النَّاس عن طلب العلم والتفقُّه في الدين، فهؤلاء أضرُّ عليهم من شياطين الجنِّ؛ فإنهم يحولون بين القلوب وبين هدي الله وطريقه.

فهؤلاء الأربعة أصناف هم الذين ذكرهم هذا العارف رحمة الله عليه، وهؤلاء كلُّهم على شفا جُرُفٍ هارٍ، وعلى سبيل الهلكة، وما يلقى العالِم الداعي إلى الله ورسوله ما يلقاه من الأذى والمحاربة إلا على أيديهم، والله يستعمل مَنْ يشاء في سخطه، كما يستعمل مَنْ يحبُّ في مرضاته، إنَّه بعباده خبير بصير. ولا ينكشف سرُّ هذه الطوائف وطريقتهم إلَّا بالعلم، فعاد الخير بحذافيره إلى العلم ومُوجَبِه، والشرُّ بحذافيره إلى الجهل ومُوجَبه»[1].

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٥٩ ـ ١٦١).

QaradawiBooks.com

الفصل الثالث

طلب العلم فريضة على كل مسلم

الحث على التَّعلُّم:

ومما عُنِي به الإسلام: الحثُّ على التعلُّم. فقد خلق الله الناس غفلًا من العلم، وأعطاهم أدوات العلم ليتعلمـوا، فإنَّما العلم بالتعلُّم. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وقال الشاعر:

تعلَّـم، فليس المرء يولـد عالِمًا ... وليس أخو علم كمن هو جاهل[(١)]**!**

وقد ذكرنا في أكثر من حديث: «**مَنْ سَـلَكَ طريقًـا يطلب فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنَّة**»[(٢)].

«**وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع**»[(٣)].

وإن طلب العلم بمنزلة الجهاد في سبيل الله.

---

(١) ذكره الجاحظ ولم ينسـبه في البيان والتبيين (١٨٦/١)، نشـر دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

(٢) سبق تخريجه صـ٩٠.

(٣) سبق تخريجه صـ٩٠.

QaradawiBooks.com

وقال ﷺ: «خيركم مَنْ تَعلَّمَ القرآنَ وعَلَّمه»[١].

وقال تعالى في كتابه: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وقال ابن عباس: ذللتُ طالبًا فعززتُ مطلوبًا[٢]!

وقال ابن المبارك: عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة[٣]!

وقال بعض الحكماء: إنِّي لا أرحم رجالًا كرحمتي لأحد رجلين: رجل يطلب العلم ولا يفهمه، ورجل يفهم العلم ولا يطلبه!

وقال أبو الدرداء: لأن أتعلَّم مسألة أحبُّ إليَّ من قيام ليلة[٤]!

وقال: العالِم والمتعلم شريكان في الخير. وسائر الناس همج لا خير فيهم[٥].

وقال أيضًا: كن عالِمًا أو متعلمًا أو مستمعًا، ولا تَكُنِ الرابع فتَهْلِك! والرابع هو المُعْرِض عن العلم[٦].

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٧)، عن عثمان بن عفان.

(٢) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١٦٣٥)، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، نشر دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٩هـ.

(٣) المصدر السابق (٣٠٧).

(٤) رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١٠٢/١)، تحقيق عادل بن يوسف الغرازي، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، ط ٢، ١٤٢١هـ.

(٥) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٦١).

(٦) رواه ابن بطة في الإبانة (٢١٠)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (٣٨١).

QaradawiBooks.com

ومما يحكى من وصايا لقمان لابنه: يا بني؛ جالسِ العلماء، وزاحمهم بركبتيك؛ فإنَّ الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض بوابل السماء[١].

وقد ذكر القرآن لنا تلك الرحلة التاريخية التي قام بها نبي من أُولي العزم من الرسل ـ وهو موسى الذي كلَّمه الله تكليمًا، واصطفاه برسالاته، وأنزل عليه التوراة فيها هدًى ونور ـ ليطلب العلم عند رجل لم يذكر القرآن لنا اسمه، واختلف العلماء في شأنه: أهو نبي أم ولي؟ وحتى إنْ كان نبيًّا ـ وهو الصحيح ـ فليس في منزلة موسى قطعًا. ويبدو أنَّ موسى قطع هذه الرحلة، هو وفتاه وخادمه على أقدامهما، ولذا قال فيها: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢].

وفي هذه الرحلة التي قصَّها علينا القرآن يتجلَّى لنا بعض الآداب المهمة للتعلُّم:

أولى هذه الآداب: الحرص على العلم مهما يكن في طلبه من لأواء ومشقة وعناء. كما فعل موسى عليه السلام في رحلته إلى «مجمع البحرين»، وقد لقي فيها ما لقي من النَّصَب.

والأدب الثاني: التلطُّف مع المعلم، وإظهار الاحترام والتوقير له، وهذا ما نلمسه بجلاء ووضوح في تعامل موسى عليه السلام مع هذا العبد الصالح، الذي عُرِفَ باسم: «الخضر» عليه السلام فقد قال له موسى بأدب التلميذ مع المعلِّم: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١٣٨٧).

غير مرخصة للطباعة
نسخة خاصة
QaradawiBooks.com

والأدب الثالث: الصبر على المعلم، وهذا ما فعله موسى مع معلمه، فحين عرض عليه أن يتبعه ليعلمه ممَّا علَّمه الله، قال المعلم: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۞ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۞ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۞ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٦٧ ـ ٧٠].

والأدب الرابع: أنَّ المؤمن لا يشبع من العلم، وأنَّه يطلب أبدًا الزيادة منه، كما قال الله لخاتم رسله: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]. وهذا ما حرص عليه موسى: أن يضيف إلى علمه علمًا آخر.

والأدب الخامس: ما نبَّهت عليه السُّنَّة النبوية، وهو: أن يتعلم العلم، يريد به وجه الله تعالى. وبذلك يغدو طلب العلم عبادة وجهادًا في سبيل الله. فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَعلَّم علمًا ممَّا يُبتغى به وجهُ الله تعالى، لا يتعلَّمُه إلا ليصيبَ به عَرَضًا من الدنيا، لم يجدْ عَرف الجنَّة يومَ القيامة**». يعني: ريحها[(١)].

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تعلَّموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا تماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، فمَنْ فعل ذلك، فالنارُ النارُ**»[(٢)]!

(١) رواه أحمد (٨٤٥٧)، وقال مخرجوه: إسناده حسن. وأبو داود في العلم (٣٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة (٢٥٢)، وابن حبان في العلم (٧٨)، وصحح النوويُّ إسناد أبي داود في رياض الصالحين (١٣٩١).

(٢) رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٥٤)، وابن حبان في العلم (٧٧)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (٤٧٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠٦)، عن جابر بن عبد الله.

QaradawiBooks.com

العلم من المهد إلى اللَّحد:

والتعلُّم أو طلب العلم في الإسلام لا يقف عند حد معين، ولا عند سن معينة، وقد اشتهر عند المسلمين هذه الحكمة: «اطلب العلم من المهد إلى اللَّحد». حتَّى ظنَّها بعض الناس حديثًا نبويًّا، وما هي بحديث، ولكنها من مأثور التراث الإسلامي.

وكم رأينا من علماء السَّلَف مَنْ يطلب العلم، وهو على فراش الموت، فيسأل بعض أصحابه أو أبنائه أن يقرؤوا عليه تفسير بعض الآيات القرآنية أو بعض الأحاديث النبوية، أو بعض المسائل الفقهية، أو نحو ذلك، حتَّى يأتيه الموت وهو يطلب العلم.

وكم رأينا من الشيوخ الكبار في السن، والكبار في العلم، مَنْ يطلب العلم، لا يستحي من شيخوخته ولا يستحي من مكانته، ولا يجد في ذلك غضاضة ولا حَرَجًا، ليحقِّق الحديث الشريف: «**منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا**»[1].

وقد حكى لنا الحافظ ابن عبد البر في كتابه: «جامع بيان العلم» صورًا ووقائع شَتَّى.

ولهذا كان أئمة الإسلام إذا قيل لأحدهم: إلى متى تطلب العلم؟ فيقول: إلى الممات.

قال نعيم بن حمَّاد: سمعت عبد الله بن المبارك رضي الله عنه يقول ـ وقد عابه قوم في كثرة طلبه للحديث ـ فقالوا له: إلى متى تسمع؟ قال: إلى الممات.

---

(١) رواه الحاكم في العلم (٩١/١)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٧٩٨)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

وقال الحسين بن منصور الجصاص: قلت لأحمد بن حنبل رضي الله عنه: إلى متى يكتب الرجل الحديث؟ قال: إلى الموت.

وقال عبد الله بن محمد البغوي: سمعت أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول: إنَّما أطلب العلم إلى أن أدخل القبر.

وقال محمد بن إسماعيل الصائغ: كنت أصوغ مع أبي ببغداد، فمر بنا أحمد بن حنبل، وهو يعدو، ونعلاه في يديه، فأخذ أبي بمجامع ثوبه فقال: يا أبا عبد الله، ألا تستحي؟ إلى متى تعدو مع هؤلاء؟! قال: إلى الموت.

وقال عبد الله بن بشر الطالقاني: أرجو أن يأتيني أمري والمحبرة بين يدي، ولم يفارقني العلم والمحبرة!

وقال حميد بن محمد بن يزيد البصري: جاء ابن بسطام الحافظ يسألني عن الحديث فقلت له: ما أشد حرصك على الحديث! فقال: أوَ ما أحب أن أكون في قطار آل رسول الله ﷺ؟!

وقيل لبعض العلماء: متى يحسن بالمرء أن يتعلم؟ قال: ما حسنت به الحياة!

وسئل الحسن عن الرجل له ثمانون سنة: أيحسن أن يطلب العلم؟ قال: إنْ كان كان يحسن به أن يعيش[١].

العلم المفروض طلبه فرض عَيْن:

في الحديث المشهور الذي رواه ابن ماجه وغيره: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[٢].

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (٧٤/١)، وجامع بيان العلم (٤٠٦/١) وما بعدها.

(٢) رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٢٤)، وأبو يعلى (٢٨٣٧)، والطبراني في الأوسط (٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٣)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

والمراد بالمسلم في الحديث: الإنسان المسلم رجلًا كان أو امرأة، ولهذا أجمعوا على أنَّ الحديث يشمل كل مسلم ومسلمة، وإن لم يرد لفظ: «ومسلمة» في رواية الحديث.

وقد اختلف شرَّاح الحديث في تحديد «العلم» المفروض طلبه. فكل صاحب اختصاص في علم أَوَّله على العلم الذي يشتغل به.

فالمتكلم قال: هو علم العقائد الذي يعرف به توحيد الله، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

والفقيه قال: هو علم الفقه الذي يعرف به الحلال والحرام. وتعرف به صحة العبادات، واستقامة المعاملات.

والمفسِّر قال: هو علم تفسير كتاب الله، الذي هو أساس الْمِلَّة، ومرجع الأُمَّة.

والمحدِّث قال: هو علم الحديث المبيِّن للقرآن، المجسِّد لسيرة الرسول، وأقواله وأعماله وتقريراته.

والمتصوِّف قال: هو علم طريق الآخرة، والسلوك إلى الله تعالى، وكيفية تزكية النفس، وعلاج مداخل الشيطان إليها، إلخ.

والأصولي قال: بل هو علم أُصول الفقه، الذي به يعرف الاستدلال فيما فيه نص، والاستنباط فيما لا نص فيه.

بل هناك مَنْ قال: علم العربية من النَّحو والصرف والبلاغة، التي بها يفهم القرآن والحديث.

والذي نراه هنا: أنَّ على المسلم أن يتعلَّم من دينه ما يعرف به ربَّه، ويعرف به نبيه، ويستيقن بصدق نبوته، وصحَّة رسالته، وأنَّ القرآن

QaradawiBooks.com

المنزَّل عليه من عند الله، ويعرف العقائد الأساسية في الإسلام: في الإلهيات والنبوات والغيبيات المتعلقة بالآخرة والعالَم غير المنظور. وأن يأخذ ذلك من كتاب الله تعالى بما فيه من بيِّنات تقنع العقل، وتنير القلب، بعيدًا عن التقليد الأعمى، وعن المماحكات الجدلية، التي أفسدت تفكير الخواص، واعتقاد العوام.

والمطلوب هنا: أن تكون دراسة العقيدة مبنية على أساسين:

١ ـ القرآن الكريم، لا على أنَّه أخبار نقلية، بل بما يتضمنه وما ينبه عليه من براهين، فقد أنزله الله هدًى للناس، وبيِّنات من الهدى والفرقان، ويؤخذ من السنن الصحاح ما يبيِّن القرآن، وما يسير في ضوئه.

٢ ـ العلوم الكونية الحديثة، بما تكشف للنَّاس من أدلَّة تُعين النَّاس، وخصوصًا المتشكِّكين في وجود الله تعالى وفي وحدانيَّته، وإبداعه في كونه، وإحسانه لخلقه، وتقرِّب منهم الحقائق الدينية من النبوَّة وأُمور الآخرة.

كما أنَّ على المسلم أن يتعلم من أحكام الإسلام وشرائعه ما هو في حاجة إليه، من علم الطهارة، والصلاة، وهو ما لا يستغني عنه مسلم، ومن علم الصيام عندما يجيء رمضان، ومن علم الزكاة عندما يملك نصابها، ويتعلم من أنواع الزكاة ما هو مفتقر إليه، فإن كان تاجرًا تعلَّم زكاة التجارة، وليس مطالَبًا بمعرفة زكاة الأنعام أو الزروع والثمار. وإذا قدر على الحج وعزم عليه عرف أهم أحكامه.

كما عليه أن يعرف أهم أحكام الحلال والحرام التي يتعرَّض لها المسلم في حياته: في المأكل، والمشرب، والملبس، والزينة، والبيت، والعمل، وحياة الأسرة والمجتمع.

QaradawiBooks.com

ولا يلزمه أن يتبع مذهبًا معينًا، وخصوصًا إذا كان من أهل العلم، ويمكنه أن يبحث عن الحكم بدليله. فلا ينبغي لمثله أن يرضى بالتقليد، فقد أجمع العلماء المتقدمون على أن «العلم» هو معرفة الحقِّ بدليله، وأن التقليد المطلق ليس علمًا!

وقد يُقبل من الشخص العامي أن يتبع مذهبًا من مذاهب الأئمة المعروفين إذا لم يجد في بلده غيره، على ألا يتعصب له بالحقِّ وبالباطل. وإذا نصحه ناصح أمين من ثقات العلماء أن مذهبه ضعيف في هذه المسألة، واطمأن إليه قلبه، فلا حَرَج عليه أن يدع مذهبه في هذه القضية، ويأخذ بالمذهب الراجح، وهذا ما يسُرّ إمامه الذي يدَّعي اتباعه.

وعلى كلِّ مسلمٍ أن يعرف ما يخصه من أحكام، فالوالي يعرف أحكام الولاية، والتاجر يعرف أحكام التجارة، والزوج يعرف حقوق الزوجية وواجباتها، والأب يعرف حقوق الأبوة والبنوة، وهكذا.

وعلى كلِّ مسلمٍ أن يعرف من علم الأخلاق والآداب الشرعية: ما يضبط به سلوكه بضوابط الشرع، فلا يحيد عما أمر الله به، ولا يتجاسر على ما نهى الله عنه، متحليًا بالفضائل، متخليًا عن الرذائل.

وعلى كلِّ مسلمٍ أن يعرف من علم طريق الآخرة والسلوك إلى الله: ما يساعده على السير في الطريق، ويعرفه بالعوائق والآفات التي تعترضه، ويقوِّي البواعث الخيِّرة في نفسه. حتَّى يُزكِّي نفسه ويفلح: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا** ﴾ [الشمس: ٩]، ويترقى حتَّى يصل إلى درجة الإحسان الذي وصفه النبي ﷺ بقوله: «**الإحسان: أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكنْ تراه، فإنَّه يراك**»[(١)].

(١) سبق تخريجه صـ٢٤.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهذه هي العلوم التي يجب على كلِّ مسلم معرفتها، وهي ـ كما قلنا ـ موصولة بالكتاب والسُّنَّة، فمعرفة هذه العلوم تتضمن معرفة ما يلزم من التفسير والحديث.

وهناك علوم مكملة، ينبغي للمسلم أن يلم بها، مثل: معرفة «السيرة النبوية»، ودراسة شيء من «علوم القرآن»، و«علوم الحديث» أو مصطلحه، وإذا تعمَّق في العلم قرأ شيئًا من «أصول الفقه»، على أن تدرس هذه كلها في كتب ميسرة بلغة معاصرة.

المهم أن يصل المسلم بمعارفه إلى حد يستطيع به: أن يزن أفكاره ومشاعره، وأقواله وأعماله، وعاداته، وسائر أموره بميزان الشرع، وأن يحكم على الأشخاص والجماعات والمواقف والسياسات بحكم الإسلام، ومن منطلق الإسلام، بعيدًا عن إفراط الغلاة، وتفريط المقصِّرين، فعلى أساس الإسلام يَحمد ويَذُم، ومن أجله يرضى ويسخط، ويصل ويقطع، ويسالم ويحارب فما رضيه الشرع رضيه، وما رفضه الشرع رفضه، غير عابئ به ولا آسف عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]. وبذا يصبح هواه تبعًا لما جاء به محمد ﷺ، وهذا هو تمام الإيمان.

ومن المفروض فرض عَيْن في عصرنا: أن يتعلم المسلم القراءة والكتابة، ويزيل عن نفسه وصمة الأُمِّيَّة، فقد أصبحت الأُمية عائقًا للأُمَّة عن التقدُّم والتنمية، وغدا التعلُّم من أسباب انتصارها وعزَّتها. وفي ميدان المنافسة الاقتصاديَّة والحضاريَّة في عصرنا لا مكان لأُمَّة أكثرها من الأمِّيِّين!

QaradawiBooks.com

ولقد بدأ النبي ﷺ في محاربة الأمية في حياته منذ السنة الثانية من الهجرة، حين جعل فداء الأسير الكاتب: أن يُعلِّم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة. والواجب علينا اليوم أن نكمل المسيرة، وألا نتخلف في السباق الحضاري.

كيف يحصِّل المسلم العلم المفروض عليه؟

وهنا يُطرح سؤال تجب الإجابة عنه، وهو: كيف يستطيع المسلم أن يحصِّل العلم المفروض طلبه عليه؟

والجواب عن هذا السؤال يختلف باختلاف أحوال المسلم، فالمسلم القارئ المتعلم غير المسلم الأُمِّي.

فيستطيع المسلم أن يحصِّل هذا العلم المفروض عليه، إمَّا بالتلقي والسماع مشافهة من علماء ثقات في علمهم وتقواهم وحسن فهمهم للدين وللواقع معًا. وهذا ما يلزم الأُميين، وليس لهم خيار في غيره، واجتهاد المسلم هنا في اختيار العالِم الذي يتلقى منه. ويجب أن يُفرِّق المسلم بين العالِم الواعظ الذي يأخذ منه الموعظة والتذكير، والعالِم الفقيه الذي يتلقى عنه الأحكام والشرائع، فليس كلُّ واعظ مؤثر، أو خطيب مفوّه، يكون ثقة في فقهه وفتواه، فإن الله وزّع المواهب والقدرات على الناس، إلا مَنْ وهبه الله الجمع بين هذه الْمَلَكَات والقدرات، وقليل ما هم.

ومن وسائل التثقيف في عصرنا: الشريط المسموع «الكاسيت»، وهو وسيلة مهمة وسريعة التأثير، ويمكن للإنسان أن يستخدمه، وهو في سيارته، أو في محل تجارته، أو المرأة في مطبخها، أو غير ذلك، دون أن يتكلف جهدًا غير الاستماع والتَّفهُّم.

QaradawiBooks.com

ويضاف إلى ذلك في عصرنا ما يبثه «التلفاز» من برامج دينية.

وإمَّا بالقــراءة والمطالعة لكتب ألَّفها علماء ثقات كذلك، وســتظل للكلمة المكتوبة قيمتهــا وأثرها في التوجيه والتثقيــف، وهي الأطول عمرًا، والأبقى أثرًا.

وينبغي للمسلم أن يتخير الكتب التي يقرؤها عامة، والتي يتعلم منها دينه خاصَّة، فإن المطابع تُخرج كل يوم الثمين والغث، والجديد والرث، فكم فيها من أصيل نافع، وكم فيها من دخيل ضار، وعلى المرء أن يأخذ ما صفا، ويدع ما كدر.

وقد قال أحد الحكماء: أخبرني ماذا تقرأ؟ أخبرك: مَن أنت!

هذا، وقراءة الكتب القديمة لا يحسنها كلُّ أحد، فهي تحتاج إلى أدوات ومفاتيح خاصَّــة لفهمها، لما فيها مــن مصطلحات، وقضايا علمية متصلة بعلوم مختلفة، لُغوية وشرعية، يستغلق فهمها على كثير من الناس، ولا بدَّ من تلقيها على شيوخها، ليفكوا رموزها، ويردوها إلى أُصولها.

ومن هنا، حذَّر الراســخون من علماء الأُمَّة مــن أخذ العلم عن «الصُّحُفيين»، ويعنــون بهم: الذين يكوِّنــون علمهم من «الصحف» وحدها، دون أن يعيشوا في مدارس العلم، ويعايشوا أهله، ويخالطوا شيوخه وتلاميذه، وقالوا في ذلك قولتهم المشهورة: لا تأخذ القرآن من مصحفي، ولا العلم من صُحُفي! فالقرآن لا يؤخذ ممن تعلمه من المصحف وحــده، ولم يتلقه على أيدي شــيوخه القُــرَّاء المتقنين، وكذلك العلم.

QaradawiBooks.com

وفرضٌ على المسلم أن يسأل في كلِّ ما يعترضه من مسائل أو مشكلات يجعل فيها حكم الشرع، ولا يجوز له أن يعمل فيها بهواه، أو حسب رأيه الخاص، أو رأي مَنْ ليس من أهل العلم والفتوى. ولا عذر له في ترك السؤال حياءً، أو كبرًا، أو كسلًا، أو انشغالًا بأمر الدنيا، قال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣]، و﴿ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٩].

وقال ﷺ في شأن قوم أهملوا السؤال في واقعة حدثت لهم، ترتب عليها قتل امرئ مسلم: «**قتلوه قتلهم الله، هلَّا سألوا إذ لم يعلموا! فإنما شفاء الْعِيِّ السؤال**»[(١)].

فرض الكفاية في العلم:

وأمَّا فرض الكفاية، فقد يكون في علوم الدين، وفي علوم الدنيا.

فأمَّا علوم الدين، فما ليس بفرض عَيْن فيها فإن تعلمه والتبحر فيه فرض كفاية، بحيث يظلُّ في الأُمَّة مَنْ إذا استُفتي أفتى بعلم، وإذا قضى قضى بحقٍّ، وإذا دعا دعا على بصيرة.

يدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

(١) رواه أبو داود في الطهارة (٣٣٦، ٣٣٧)، والدارقطني في الطهارة (٧٢٩)، ونقل عن شيخه فيه أبي بكر ابن أبي داود قوله: هذه سُنَّة تفرَّد بها أهل مكة، وحملها أهلُ الجزيرة، لم يروه عن عطاء عن جابر غيرُ الزُّبير بن خريق، وليس بالقوي، وخالفه الأوزاعي فرواه عن عطاء عن ابن عباس، وهو الصواب. وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود (٣٦٤)، دون قوله: «إنما كان يكفيه...».

QaradawiBooks.com

فلم يوجب على الجميع النفير لطلب العلم، إنَّما أوجبه على طائفة في كلِّ فرقة. سواء أكانت هذه الطائفة اثنين أو أكثر أو أقل، ما دامت تكفي لوظيفة الفقيه (التفقيه) والإنذار.

كما يدلُّ عليه حديث: «**حتى إذا لم يبق عالِمًا، اتخذ النَّاس رؤوسًا جُهَّالًا، فسئلوا بغير علم فضَلُّوا وأَضلُّوا**»[1].

والواجب على الأُمَّة ـ بالتضامن ـ أن تهيئ مِن أبنائها مَن يقوم بهذه المهمة في الإفتاء والتفقيه والتعليم والدعوة والإرشاد، في صورة التخصص العالي، والعلم الاستقلالي، وأن يكون لديها العدد الكافي بحيث يلبي حاجتها في كل بلد من البلدان.

وأمَّا علوم الدنيا، فأعدل ما قيل فيه ما قاله الإمام الغزالي، وهو أن فرض الكفاية منها: كلُّ علم لا يُستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، كالطب؛ إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب؛ فإنَّه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما، وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حَرِج أهل البلد «يعني: دخل عليهم الحرج والمشقة»، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين.

قال: «فلا يُتعجب من قولنا: إن الطب والحساب من فروض الكفايات، فإن أصول الصناعات أيضًا من فروض الكفايات؛ كالفلاحة والحياكة والسياسة، بل الحجامة والخياطة، فإنَّه لو خلا البلد من الحجَّام «الذي يقوم بجراحة الحجامة، وهو نوع من الجراحة الخفيفة» تسارع الهلاك إليهم، وحَرِجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك، فإن الذي أنزل الداء

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، كلاهما في العلم، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

أنزل الدواء، وأرشـــد إلى استعماله، وأعدَّ الأســـباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله.

وأمَّا ما يُعَدّ فضيلة لا فريضة، فالتعمق في دقائق الحســـاب، وحقائق الطب، وغير ذلك، ممَّا يســـتغنى عنه، ولكنه يفيد زيـــادة قوة في القدر المحتاج إليه»[1].

وما قاله الغزالي هنا قوي وموافق لمقاصد الشريعة، فإنَّها تقصد إلى إنشاء أُمَّة قويَّة عزيزة مكتفية بذاتها، قادرة على التصدي لأعدائها، وهذا يوجب عليها ـ بالتضامن ـ أن تتفـــوَّق في كل العلوم الطبيعية والرياضية التي تحتاج إليه الأمم في عصرنا لتنمو وتتقدم. وليس الطب والحساب فقط، كما تحتاج إلى الصناعات التكنولوجيـــة المتطورة، وليس أصول الصناعات القديمة وحدها.

هـــذا، ولا نوافق الإمـــام الغزالي علـــى اعتباره التعمـــق في دقائق الحساب، وحقائق الطب: مجرد فضيلة لا فريضة، فلعل هذا كان بالنسبة إلى زمنـــه، أمَّا زمننـــا فيعتبر التعمق فـــي هذه العلوم وما يشـــبهها من الرياضيات والفلك والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والأحياء وغيرها، بحيث يصل إلى دقائقها، ويرتقي إلى حقائقهـــا، فريضة لازمة. والأمم تتســـابق في هذا تســـابقًا خطيرًا، كل تحاول أن تحتل مكانًا يجعل لها قدرًا، ولولا التعمُّق في هـــذه العلوم ما وصل عصرنا إلى تحطيم الذَّرَّة، وغزو الفضاء، وصناعـــة «الكمبيوتر»، والثـــورة «التكنولوجية»، وثورة البيولوجيا «هندسة الوراثة والجينات»، وثورة المعلومات، وغيرها ممَّا أمسى من خواصِّ عصرنا.

(١) إحياء علوم الدين (١/١٥، ١٦).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

العلم المباح:

وقد ذكر الغزالي رحمه الله العلم المباح، فضرب له مثلًا بالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها، والعلم بتواريخ الأخبار وما يجري مجراه.

وهذا إذا كان بالنسبة للأفراد فهو مسلَّم، فهو في حقِّهم من المباح، الذي يمكن أن يتحوَّل إلى طاعة بالنيَّة الصالحة، بمعنى أن يقصد بتعلمه خدمة الدين، وإرضاء الله تعالى، وقد بيَّنا في كتابنا: «ثقافة الداعية»: أن الدراسة اللُّغوية والأدبية، والدراسة التاريخية ـ وخصوصًا التاريخ الإسلامي بدءًا من السيرة النبوية وتاريخ الراشدين، وتاريخ العلماء والمصلحين ـ من الأدوات الضرورية للداعية.

وأمَّا بالنسبة للأُمَّة، والحديث عن الفروض الكفائية الواجبة عليها ـ فأعتقد أن دراسة الأشعار والأدب، وكذلك دراسة التاريخ ـ من فروض الكفاية على الأُمَّة، فلا بدَّ أن يوجد فيها متخصِّصون في هذه المجالات، يعبِّرون عن فلسفة الأُمَّة وحضارتها، ويجعلون من دراستهم أداةَ بناءٍ لها لا معول هدم لكيانها.

ولو تُرِك هذا المجال فارغًا لملأه أولئك الذين يمثلون فلسفات دخيلة على الأُمَّة، لا تهتم بدينها ولا قيمها، ولا رسالتها ولا تراثها، بل تعادي ذلك كله.

وهذا ما عانيناه من ذوي الغرض من المستشرقين من الغربيين، والمستغربين من أبنائنا الذين لم يتحصنوا بالعلم النافع، والإيمان الصادق، والخُلُق المتين.

QaradawiBooks.com

العلم المذموم:

وذكر الإمام الغزالي هنا: المذموم من العلم، ومثَّل له بعلم «السحر والطلسمات»، وعلم «الشعوذة والتلبيسات».

وهذا صحيح، فقد ذكر الله السحر في كتابه وذَمَّه أبلغ الذم، وقال في شأن تعلمه: ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

واعتبر النبي ﷺ السحر من السبع الموبقات[١]، أي المهلكات للفرد وللجماعة.

ومثل ذلك كلُّ علمٍ لا يقوم على أساس صحيح، أو لا ينفع النَّاس في دينهم ولا دنياهم، بل يعود عليهم بالضرر المادي أو المعنوي.

ومن ذلك: علم التنجيم، الذي يُدَّعى فيه معرفة الغيوب، وكشف المستقبل بواسطة النجوم، فهذا محرَّم؛ لأنه ضرب من السحر، كما جاء في الحديث الذي رواه ابن عباس: «**مَنِ اقتبس علمًا من النجوم، فقد اقتبس شُعْبة من السحر، زاد ما زاد**»[٢].

فهذا العلم لا يقوم على أساس منطقي أو تجريبي، وإن صدق فبالاتفاق والمصادفة؛ ولذا قيل: كذب المنجمون ولو صدقوا!

وهذا بخلاف «علم الفلك» المبني على أُسس رياضية وتجريبية، وقد برع المسلمون فيه أيام ازدهار حضارتهم، وبرع الغربيُّون فيه اليوم، وعلى أساسه استطاعوا الوصول إلى القمر، ويحاولون الوصول إلى الكواكب الأبعد.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٢٨٤٠)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الطب (٣٩٠٥)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٢٦)، وصحَّحه إسناده النووي في رياض الصالحين (١٦٧١)، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٣٠٥).

QaradawiBooks.com

الفصل الرابع

حقوق العلم على أصحابه

الفقه وحُسْن الفهم:

أوَّل حقوق العلم على طالبه أو صاحبه: أن يبذل فيه جهده، حتَّى يحكمه ويتقنه ويهضمه، وينتقل به من مرتبة «العلم» إلى مرتبة «الفقه». الفقه بالمعنى القرآني والنبوي لا بالمعنى الاصطلاحي، الذي معناه تحصيل علم الفروع على مذهب من المذاهب.

والفقه بهذا المعنى المنشود أخصُّ من العلم؛ لأنَّ معناه لغة: الفهم والتفطن وحسن الإدراك، ومقتضى هذا ألا يقف عند الظواهر، وإنَّما يغوص إلى المقاصد، وألَّا تشغله الألفاظ عما وراءها من معان، وألَّا تغرقه الجزئيات فينسى الكليات.

والقرآن طلب منَّا النفير للتفقه في الدين لا لمجرد التعلم، فقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢].

والحديث النبوي المتفق عليه يقول: «**مَنْ يرد الله به خيرًا؛ يفقهه في الدين**»[(١)].

وأوَّل مراتب هذا الفقه: أن ينتقل من الرواية إلى الدراية، من الحفظ

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧١)، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧)، عن معاوية.

QaradawiBooks.com

إلى الفهم، فيفهم عن الله ورسوله مرادهما، ويسأل أهل العلم ويحاروهم حتَّى يفهم ويفقه.

وقد قال سَـلَفنا: ليس العلم بكثرة الرواية، إنَّما هو نور يقذفه الله في القلب.

وفي الحديث الشريف: «**رُبَّ حامل فقه ليس بفقيه**»[١].

والقرآن الكريم قد صوَّر لنا الذي يحمل العلم ولا يفقهه ولا يفهم أسراره، بالحمار الذي يحمل نفائس الأسفار «أي الكتب» ولا يدري عما تحتويه شيئًا، وهذا ما وصف به القرآن اليهود في عصـر النبوة حين قال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجمعة: ٥].

أخذ هذا المعنى شاعر مسـلم، فوصف به الذين يحملون العلم ولا يعون مقاصده، ولا يغوصون فيه، فقال:

زوامل للأسفار لا علم عندهم[٢]

وفي حديث «الصحيحين»، عن أبي موسـى[٣]، تشبيه العالِم الفاهم المعلِّم بالأرض الطيبة التـي قبلت الماء الذي نزل عليها من السـماء،

(١) رواه أحمد (٢١٥٩٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وقال: حسن. كلاهما في العلم، وابن ماجه في المقدمة (٢٣٠) عن زيد بن ثابت.

(٢) ذكره ابن قتيبة ولم ينسبه في عيون الأخبار (١٤٦/٢).

(٣) نصُّ الحديث: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلـم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشـب الكثير، وكانت منها أجادب أمسـكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت طائفة أخرى، إنَّما هي قيعان، لا تمسك الماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل مَن فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومثل مَنْ لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله، الذي أرسلت به**». متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧٩)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٢).

QaradawiBooks.com

فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير، وانتفع النَّاس بها، كما شبَّه العالِم الراوي بالأرض التي لم تقبل الماء، ولكنَّها احتفظت به، فشرب النَّاس منه، وسقوا وزرعوا، ففرَّق الحديث بين العلماء الوعاة، والعلماء الرواة، ومن هنا ركز علماء السَّلَف على الدراية أكثر من الرواية[١].

إنَّ آفة كثير من المشتغلين بعلم الدين خاصَّة هو «الحرفيَّة» في فهم نصوصه، وجمودهم على ظواهر ألفاظه، وعدم وقوفهم على أسراره؛ لأنهم دون هذه المرتبة بحكم مؤهلاتهم العقلية والنفسية، ولكن مشكلتهم أنهم يضعون أنفسهم في زمرة «الأئمة»، ويتصدرون الصفوف للدعوة، والتعليم والإفتاء!

وهؤلاء عادة يعوقون عملية التغيير المطلوب، ويقفون عقبة في طريق الإصلاح والتجديد الإسلامي، وكثيرًا ما شكا منهم المجددون الأُصلاء أمثال: ابن تيمية، وابن القيم قديمًا، وأمثال: محمد عبده، ورشيد رضا حديثًا.

ولقد رأيناهم أشد على دعاة التجديد والإصلاح من «العلمانيين» وخصوم الدين في بعض الأحيان، وقديمًا قالوا: عدو عاقل خير من صديق أحمق.

الترقي عن التقليد:

وثاني مراتب الفقه المطلوب: أن يرقى طالب العلم عن التقليد للغير، إلى الفهم المستقل، وأن يفكر برأسه هو لا برأس أحد سواه، حيًّا كان أو ميتًا، فإنَّ الله منحه العقل ليتفكر به ويتدبر، لا ليجمده ويعطله.

(١) انظر كتابنا: في فقه الأولويات صـ ٥٧ ـ ٦٢، أولوية الفهم على الحفظ، وأولوية المقاصد على الظواهر، وأولوية الاجتهاد على التقليد.

QaradawiBooks.com

وقد قال الإمام ابن الجوزي كلمة مضيئة ينبغي أن نعيها ونرويها لتُحفظ، قال في ذم التقليد والمقلِّدين في كتابه: «تلبيس إبليس»: «اعلم أنَّ المقلِّد على غير ثقة فيما قلَّد، وفي التقليد إبطال منفعة العقل؛ لأنَّه خُلِق للتدبر والتأمل، وقبيح بمن أُعطي شمعة أن يطفئها ويمشي في الظلمة»[1]!

لقد شنَّ القرآن حربًا عنيفة على «المقلِّدين» الذين حقروا أنفسهم، وألغَوْا عقولهم، متبعين أجدادهم وآباءهم، أو سادتهم وكبراءهم، فيما اعتقدوه من عقائد، وما اعتنقوه من أفكار، وسفَّههم القرآن أبلغ تسفيه في سور عدة من القرآن المكي والمدني.

ويكفينا قوله تعالى في ذم تقليد الآباء: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ۞ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠، ١٧١].

وفي ذمِّ تقليد الكبراء قوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۞ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وفي سورة الأعراف تتحدَّث الآية عن أهل النار، وتلاوم الأتباع والمتبوعين فيها وتلاعنهم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

(١) تلبيس إبليس صـ ٧٤، نشر دار الفكر، لبنان، ط ١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

والتقليد كما يعرِّفونه: أن تأخذ قول الغير بغير حُجَّة بيِّنة تؤيده، فربما لم تكنْ معه حُجَّة قط. وربما كانت معه حُجَّة واهية لا تقف أمام حجج من يعارضه. ومصدر ذلك: التعظيم أو التقديس لذلك الغير، أضفاه عليه المقلِّد التابع، فرضي لنفسه أن يكون ذيلًا وقد خلقه الله رأسًا، وأن يكون عبدًا في فكره، وقد خلقه الله حرًّا.

واتباع الوحي ليس من التقليد في شيء، بعد أن ثبت بالبراهين العقلية القاطعة نبوَّة النبي، وإلهية القرآن، بعد ثبوت ربوبية الربِّ الخالق المعلِّم الأكرم، وثبوت إلهية الإله العليم الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي ينافي حكمته ورحمته أن يدع خلقه هملًا، ويتركهم سدى.

وبعد ثبوت الوحي بالقواطع العقلية، يعزل العقل نفسه ـ بتعبير الإمام الغزالي ـ ليتلقى الهداية الإلهية التي تصحح للعقل أخطاءه، وتهديه فيما ليس له إليه سبيل من الإلهيات والغيبيات، وتضع الموازين والضوابط فيما يحتاج إليه، وتدع له حقَّ التفسير والتعليل فيما أُنزل إليه، مهتديًا بما بُيِّن له من ضوابط، وتطلق له العنان في اكتشاف ما في الكون وتسخيره، بعقل المؤمن، وتفكير المهتدي بهَدْي الله.

إنَّ أشدَّ شيء على العقل خطرًا ـ بعد اتباع الهوى ـ هو التقليد الأعمى، الذي لا نزال نراه في حياتنا في صور شَتَّى.

فهناك مَنْ باعوا عقولهم ـ أو تنازلوا عنها بغير ثمن ـ لغيرهم ممن يعظمونهم من القدماء أو المحْدَثين.

هناك من المشتغلين بالفقه مَنْ باعوا عقولهم أو تنازلوا عنها، لأئمتهم المتقدمين، أو شيوخهم المتأخرين من الفقهاء.

QaradawiBooks.com

وهناك من المشتغلين بالكلام والعقائد من باعوا عقولهم أو تنازلوا عنها لأئمتهم أو شيوخهم من السلف أو الخَلَف.

وهناك من المشتغلين بالسلوك والتصوُّف من باعوا عقولهم لأئمتهم أو شيوخهم، وتركوا أنفسهم بين أيديهم كالميت بين يدي الغاسل.

وفي مقابل هؤلاء نجد آخرين من المتغرِّبين، باعوا عقولهم أيضًا أو تنازلوا عنها بغير ثمن لأئمَّتهم وشيوخهم في الغرب!

دعـــاة «الليبرالية» باعوا عقولهـــم لأئمة الليبراليـــن! طالبين منَّا أن نتَّبعهم في الخير والشر، والحلو والمر، وما يُحمد وما يُعاب.

ودعاة «الماركســـية» ـ التي هُزِمَتْ في عقر دارها ـ باعوا عقولهم لشيوخ الماركسية وأئمتها، وطالبونا أن نتخذ فلسفتها مصدرًا للهداية والتشريع.

وكلُّ دعاة الأيديولوجيات والفلســفات الوضعية المختلفة باعوا لها عقولهم، ودعونا أن نلغي عقولنا معهم، لنتبع مناهجهم وأهدافهم شِـــبرًا بشِبر، ولم يحاول هؤلاء ولا أولئك أن يحرروا عقولهم من التبعية، وأن يمتحنوا مذاهب أئمتهم، وأفكار ســـادتهم وكبرائهـــم، ويعرضوها على قواطع العقل، وثوابت الوحي، ليعرف صحيحها من زيفها، وجيدها من رديئها، وحقِّها من باطلها، فيهتدوا بالحقِّ ويعرضوا عن الضلال، ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾؟ [يونس: ٣٢].

لا يجوز للغرباء أن يتحكَّموا في أهل الدار، ولا ينبغي للأموات أن يحكمـــوا الأحياء، وأن يفتوا في أخـــصِّ أمورهم، وهم في بطون قبورهم!

QaradawiBooks.com

العمل بالعلم:

ومن حقِّ العلـــم على صاحبه: أن يعمل بموجبـــه، فالعلم بالعبادات يقتضي أن يؤديها على وجهها، مستوفية شروطها وأركانها، خالصة لوجه الله تعالى. والعلم بالمعاملات يقتضي أن يقـــوم بها في حدود الحلال، بعيدة عن الحرام، مستكملة الشروط والأركان. والعلم بالأخلاق يقتضي أن يتحلَّى بفضائلها ويتخلَّى عن رذائلها. والعلم بطريق الآخرة، يقتضي أن يعد لها عدتها، ويســـعى لها ســـعيها، ويحذر من قواطع الطريق التي تعمل على أن تثبط إرادته، وتعوق حركته.

وبهذا يكون العلم حُجَّة له، لا حُجَّة عليه، ويستطيع أن يجد للسؤال جوابًا إذا سُئِل يوم القيامة «عن علمه: ماذا عمل فيه»؟

فعن أبي برزة الأســـلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتَّى يُسأل عن عمره: فيم أفناه؟ وعن علمه: فيم فعل فيه؟ وعن مالـــه: من أين اكتســـبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن جســـمه: فيم أبلاه؟**»[(١)].

ولا يكون كذلك العالِم الذي آتاه الله آياته فانســـلخ منها، وأخلد إلى الأرض، واتبع هواه، فضرب الله مثلًا بالكلب في أسوأ صورة له: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤١٧)، وقال: حسن صحيح. وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٢٦).

QaradawiBooks.com

وإنَّما ينتصر الدين، وترتقي الدنيا، بالعلماء العاملين، الذين يؤيد عملهم علمهم، وتصدق أفعالهم أقوالهم، فهم يؤثرون في النَّاس بسلوكهم وحالهم، أكثر ممَّا يؤثرون بكلامهم، ولهذا قيل: حال رجل في ألف رجل، أبلغ من مقال ألف رجل في رجل!

وإنَّ من شر ما تُبتلى به الحياة، ويُبتلى به الناس: العالِم الذي يناقض عمله علمه، ويُكذِّب فعله قوله، فهو فتنة لعباد الله، وهو الذي حذَّر القرآن منه أهل الإيمان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣].

ووبَّخ القرآن بني إسرائيل بقوله: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

ولا غرو أن استعاذ النبي ﷺ من العلم الذي لا ينفع، فعن زيد بن أرقم: أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللهم إنِّي أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**»(١).

وعن أسامة بن زيد: أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه** ـ أي: تخرج أمعاؤه من مكانها ـ **فيدور بها، كما يدور الحمار برحاه، فتجتمع أهل النار عليه، فيقولون: يا فلان؛ ما شأنك؟ ألستَ كنت تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنتُ آمركم بالمعروف، ولا آتيه، وأنهاكم عن الشر وآتيه**»(٢)!

(١) سبق تخريجه صـ٣٤.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٧)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٩).

QaradawiBooks.com

قال أسامة: وإنِّي سمعته ﷺ يقول: «**مررتُ ليلة أُسرِيَ بي بأقوام تُقرض شفاههم بمقاريض مِن نار، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء أُمَّتك الذين يقولون ما لا يفعلون**»[(١)]!

وصوَّر النبي ﷺ العالِم الذي ينفع النَّاس بعلمه، ولا ينتفع به تصويرًا بليغًا، حين قال: «**مثل الذي يُعلِّم النَّاس الخيرَ وينسى نفسَه، كمثلِ الفَتِيلة** (يعني: السراج، أو الشمعة) **تضيء للنَّاس، وتحرِق نفسها**»[(٢)].

وعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللِّسان**»[(٣)]!

وسرُّ هذا الخوف: أن هذا المنافق مزوق الظاهر، خرب الباطن، خلو اللِّسان، مُرّ العمل، فهو يغرُّ النَّاس بظاهر علمه، ويسحرهم بمعسول كلامه، وقلبه خاوٍ من اليقين. فالمنافق الجاهل ليس من ورائه خطر يُذكر، إنَّما الخطر في هذا المنافق العليم اللسان.

وعن عمر بن الخطاب قال: حذَّرنا رسول الله ﷺ من كل منافق عليم اللسان[(٤)].

---

(١) رواه أحمد (١٢٢١١)، وقال مخرجوه: حديث صحيح. وابن حبان في الإسراء (٥٣).

(٢) رواه الخطيب في اقتضاء العلم العمل (٧١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٦٩): رواه الطبراني في الكبير، وفيه محمد بن جابر السحيمي، وهو ضعيف لسوء حفظه واختلاطه. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٣٧)، عن أبي برزة.

(٣) رواه البزار (٣٥١٤)، وابن حبان في العلم (٨٠)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري. والطبراني (٢٣٧/١٨)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٥١٤): ورواته محتج بهم في الصحيح.

(٤) رواه أحمد (١٤٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده قوي. والبزار (٣٠٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٨٦): رواه البزار وأحمد وأبو يعلى، ورجاله موثقون.

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

ولهذا كان عمر كثيرًا ما يستعيذ بالله من المنافق العليم، وقد سئل: كيف يكون منافقًا وعليمًا؟ قال: عالِم اللسان جاهل القلب[١].

وقال عليُّ بنُ أبي طالب: قصم ظهري رجلان: جاهل متنسك، وعالِم متهتك، ذاك يغرُّ النَّاس بتنسكه، وهذا يضلهم بتهتكه[٢]!

تعليم العلم ونشره في الناس:

ومن حقِّ العلم على العالِم: أن يُعلِّمه للآخرين، فقد علَّمنا الإسلام أنَّ في كلِّ نعمة زكاة، فإذا كانت زكاة المال أن تنفق منه للمحتاجين، فإنَّ زكاة العلم أن تُعلِّمه للآخرين، وهذا هو شأن «الربَّانيين» الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

ولهذا قالوا: الربَّاني هو مَن يتعلم، ويعمل، ويُعلِّم.

ورووا عن المسيح قوله: مَن علم وعمل وعلَّم، فذاك يُدعى عظيمًا في ملكوت السماء!

وفي «الصحيح»: «**خيركم من تعلَّم القرآن وعَلَّمه**»[٣].

ولقد تعلَّمنا من القرآن: أنَّ الله تعالى هو المعلِّم الأول لخلقه، فهو الذي ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]، وهو الذي علَّم أنبياءه ورسله ليعلِّموا

(١) رواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٦٨٣).

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة للأصبهاني صـ ١٨٤، تحقيق د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، نشر دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

(٣) سبق تخريجه صـ٣٤.

QaradawiBooks.com

أُممهم، فعلَّم آدم الأسماء كلَّها، وعلَّم إبراهيم، وعلَّم يعقوب، وعلَّم يوسف من تأويل الأحاديث، وعلَّم موسى، وداود وسليمان والمسيح، وعلَّم محمدًا ما لم يكن يعلم.

وكان هؤلاء الرسل مُعلِّمين لأقوامهم، مُبلِّغين عن ربهم، مبشِّرين ومنذرين، وآخرهم محمد، الذي ذكر الله رسالته في أربع آيات من كتابه يبيِّن فيها أن مهمَّته الأساسية مهمة تعليمية، ويكفي أن نقرأ منها قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وقال ﷺ عن نفسه: «**إنَّ الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلِّمًا ميسرًا**»(١).

فمَن أراد أن يتَّصف بصفة من صفات الله تعالى، وأن يتأسَّى برسوله الكريم فليعلِّم الآخرين.

فعن أبي أمامة قال: ذُكِرَ لرسول الله ﷺ رجلان، أحدهما عابد، والآخر عالِم، فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: «**فضل العالِم على العابد كفضلي على أدناكم**»، ثمَّ قال: «**إنَّ الله وملائكته، وأهل السماوات والأرض، حتَّى النملة في جحرها، وحتى الحوت، ليصلُّون على مُعلِّم النَّاس الخير**»(٢).

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا، فسلَّطه على هلكته في الحقِّ، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويعلِّمها**»(٣).

(١) رواه مسلم في الطلاق (١٤٧٨)، وأحمد (١٤٥١٦)، عن جابر بن عبد الله.

(٢) سبق تخريجه صـ٩٠.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧٣)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٦).

QaradawiBooks.com

والحسد يُطلق ويُراد به تمنِّي زوال النعمة عن المحسود، وهذا حرام ما لم يكن يستخدمها في معصية الله. ويُطلق ويُراد به: الغبطة، وهو: أن يتمنى أن يكون مثله، وهذا لا بأس به، وهو المراد هنا.

وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فهم يتفقَّهون في الدين ليُنذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، والإنذار: تعليم وإرشاد مقرون بالترغيب والترهيب.

وقد حثَّ رسول الله ﷺ أصحابَه على أن يُبلِّغوا عنه كلَّ ما يأخذونه عنه من قرآن أو حديث.

روى عنه عبد الله بن عمرو: «**بلِّغوا عنِّي ولو آية**»(١).

وروى عنه ابن مسعود: «**نضر الله امرأً سمع منَّا شيئًا، فبلَّغه كما سمعه، فرُبَّ مبلِّغ أوعى من سامع**»(٢).

وروى عنه جبير بن مطعم: «**نضر الله عبدًا سمع مقالتي، فحفظها ووعاها، وبلَّغها مَن لم يسمعها، فَرُبَّ حامل فقه لا فقه له، ورُبَّ حامل فقه إلى مَن هو أفقه منه**»(٣).

---

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١).

(٢) رواه أحمد (٤١٥٧)، وقال مخرجوه: حديث صحيح. والترمذي في العلم (٢٦٥٧)، وقال حسن صحيح. وابن ماجه في المقدمة (٢٣٢). وقد روي هذا الحديث عن عدد من الصحابة.

(٣) رواه أحمد (١٦٧٥٤)، وقال: حديث صحيح لغيره. وابن ماجه في المقدمة (٢٣٦)، والطبراني (١٢٦/٢)، مختصرا، والحاكم في العلم (٨٦/١)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

QaradawiBooks.com

نبَّه الحديث على أنَّ حامل العلم قد يحفظه ولكنَّه غير قادر على الاستنباط منه، فهو ينقله إلى غيره ممن هو أفقه وأقدر على استخراج الحكم منه. فيشاركه في الأجر.

وكلُّ مَن علَّم العلم أو بلَّغه ونشره، فله أجر مَنِ انتفع به، إذا صحَّت بذلك نيته، وابتغى وجه الله فيه، فعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أُجور مَن تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا**»(١).

وقال النبيُّ ﷺ لعليٍّ: «**فواللهِ، لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا، خيرٌ لك من حُمْر النَّعَم**»(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**على خلفائي رحمة الله**»، قيل: ومَن خلفاؤك؟ قال: «**الذين يحيون سُنَّتي ويُعلِّمونها عبادَ الله**»(٣).

وهكذا مضى الربَّانيون من علماء الأُمَّة هداة معلِّمين، لا يضنون بعلم على مَن طلبه، بل يكرهون أن يحيوا ولا يستفيد منهم أحد.

قال عطاء: دخلتُ على سعيد بن المسيِّب، وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال: ليس أحد يسألني عن شيء(٤)!

---

(١) رواه مسلم في العلم (٢٦٧٤)، وأحمد (٩١٦٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٤٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٠٦)، عن سهل بن سعد.

(٣) رواه ابن بطة في الإبانة الكبرى (٣٧)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٢٠)، والهروي في ذم الكلام (٦٩٥) عن الحسن.

(٤) إحياء علوم الدين (١/١١).

غير مرخصة للطباعة
نسخة عليه
QaradawiBooks.com

وقدم سفيان الثوري عسقلان، فمكث أيامًا لا يسأله إنسان. فقال: اكروا لي لأخرج من هذا البلد؛ هذا بلد يموت فيه العلم[١]!

وقال الحسن: لولا العلماء لصار النَّاس مثل البهائم! أي أنَّ العلماء يخرجونهم بالتعليم من حد البهيمية إلى حد الإنسانية[٢].

وقال يحيى بن معاذ: العلماء أرحم بأُمَّة محمَّد من آبائهم وأمَّهاتهم، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأنَّ آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا، وهم يحفظونهم من نار الآخرة[٣].

وجوب البيان وتحريم الكتمان:

وكما يحرم على الإنسان أن يقول ما لا يعلم في دين الله، فإنَّه يحرم عليه أن يكتم ما يعلم، ممَّا ينفع الله به النَّاس من البيِّنات والهدى، فإن زكاة العلم ـ كما ذكرنا ـ نشره وبثه، لا كنزه وحبسه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

والآيتان نزلتا في شأن أهل الكتاب من أحبار اليهود ورهبان النصارى، الذين كتموا صفات النبي ﷺ في كتبهم، بالحذف أو الإخفاء، أو التحريف. ولكن اللَّفظ عام يشمل كل مَن كتم من دين الله علمًا يُحتاج إلى بثه.

(١) رواه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٨٤٩)، تحقيق د. محمود الطحان، نشر مكتبة المعارف، الرياض.

(٢) إحياء علوم الدين (١١/١).

(٣) المصدر السابق.

QaradawiBooks.com

فلا يجوز للعالِم بحال أن يقصد إلى كتمان العلم النافع، ومَن قصد ذلك فهو عاصٍ آثم، وإذا لم يقصد إلى الكتمان، وكان في النَّاس مَن يقوم بواجب البيان والتبليغ والدعوة، فقد رُفع عنه الإثم، فإن البيان فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الحَرَج عن الباقين، وهذا إذا كان عدد المبلِّغين والدعاة من الكفاية بحيث تكون منهم «أُمَّة» أي جماعة وقوَّة، كما أمر الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ويتعيَّن البيان على العالِم إذا سأله سائل يسترشد عن أمر من أُمور دينه، ولا يحل له الكتمان هنا، اتكالًا على غيره، حتَّى لا يضيع المسلم بين هذا وذاك.

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ سُئِل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار**»[(١)].

ذلك أنَّ من حقِّ السائل المتعلم على العالِم أن يجيبه ويعلِّمه، ما لم يكن متعنتًا ولا متنطعًا، يتتبع الغرائب وأُغلوطات المسائل، فقد ورد النهي عن هذه الأغلوطات، وأدَّب عمر سائلًا عُرِف بذلك.

كما يحرم على العالِم المسلم السكوت عن البيان العلمي باللسان أو القلم إذا ترتب على سكوته التباس الحقِّ بالباطل، واشتباه الحلال بالحرام، واختلاط المعروف بالمنكر، فيلزمه هنا البيان، إزالة للَّبْس،

(١) رواه أحمد (٧٥٧١)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح. وأبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وقال: حسن. كلاهما في العلم، وابن ماجه في المقدمة (٢٦٦)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤).

QaradawiBooks.com

وإيضاحًا للحقِّ، فـإنَّ البيان هنا من باب الشـهادة التي يحرم كتمانها: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وقد ضرب القرآن لنا مثلًا بعلماء السـوء مـن اليهود والنصارى الذين كتموا ما أنزل الله، ابتغـاء عَرَض الدنيا فلعنهم الله، ليكون ذلك لنا عبرة، قال تعالـى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٤، ١٧٥].

وإنَّ في هذا الوعيد الشـديد لتذكرة لمن يلبسون لباس العلماء، من الذين يجارون الملوك الفاسقين والرؤساء الظالمين، ويكتمون الحقَّ وهم يعلمون، فكيف بالذين يحلُّون لهم الحرام، ويسـقطون عنهم الفرائض، ويمدونهم بالفتاوى الجاهزة لكل بدعة يبتدعون، وكل منكر يقترفون؟

الوقوف عند ما يعلم:

ومن حقوق العلم علـى العالِم: أن يقف عنـد حدود علمه، ولا يتطاول إلى ما ليس من شـأنه، ولا في طاقته. كالعلـم بكُنْهِ الذات الإلهية، فإنَّ الإنسـان قد عجز عن معرفة كُنْه نفسه، فكيف يطمع في معرفة كُنْه ربِّه ﷻ؟ وقد قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

QaradawiBooks.com

وكذلك معرفة الغيب المطلق الذي استأثر الله بعلمه: ﴿ **قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ** ﴾ [النمل: ٦٥].

ومن ذلك: علم الساعة الذي لم يطلع الله عليه مَلَكًا مقرَّبًا ولا نبيًّا مرسلًا، وقال النبي ﷺ لجبريل حين سأله عنها: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»[(١)]. وقال تعالى: ﴿ **يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ** ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وأَوْلى بالإنسان أن يدخر طاقته العقلية ليبذلها فيما يستطيعه، وفيما يعود عليه بالخير في دينه ودنياه.

ويجب على العالِم المسلم إذا سئل عما لا يعلم، أن يقول: لا أعلم. فليس في العلم كبير، وفوق كلِّ ذي علم عليم. وليس هناك مَن أحاط بكل شيء علمًا غير الله سبحانه، وكل بشر يعلم شيئًا وتغيب عنه أشياء. وقد سُئِل النبي ﷺ عن أشياء، فلم يجب عنها حتَّى نزل عليه الوحي.

وقال ابن مسعود: إنَّ الذي يفتي النَّاس في كل ما يستفتونه لَمَجْنُون[(٢)]!

وقال غيره: مَن قال: «لا أدري» فقد أجاب. ومَن أخطأ قول: «لا أدري» أصيبت مقاتله[(٣)]!

---

(١) سبق تخريجه صـ٢٤، وفيه: «**أن تعبد الله كأنَّك تراه**».

(٢) ذكره ابن المنذر في الإشراف على مذاهب العلماء (١٥٠/٦)، تحقيق صغير أحمد الأنصاري، نشر مكتبة مكة الثقافية، رأس الخيمة، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

(٣) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٥٨١)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (٨١٣)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

وكم سُئِل من كبار الأئمة ـ مثل: الإمام مالك ـ فلم يستنكف أن يقول: لا أدري[١].

وكان الصحابة إذا استفتوا أحال كلٌّ منهم السائل على صاحبه، خشيةً من تبعة الفتوى.

وكان ابن عمر يتهيَّب الفتوى، ويقول لمن يسأله: اذهب إلى الأمير فاسأله. ويقول لصاحبه: أتدري ماذا يريد هؤلاء؟ يريدون أن يتخذوا ظهورنا جسورًا إلى جهنم[٢]!

وبكى بعض علماء السَّلَف، فسئل في ذلك، فقال: استُفتي اليوم مَن لا علم عنده!

فكيف لو شاهد عصرنا، ورأى مَن يستفتون، ومَن يفتون؟!

ولقد ابتلينا في عصرنا ببعض المجترئين الذين استباحوا حمى الشريعة، وأمسوا يحلِّلون ويحرِّمون، ويوجبون ويسقطون، ويُبدِّعون ويُفَسِّقون، بل يُكَفِّرُون، لمجرَّد أنهم قرؤوا بعض الكتب لبعض العلماء وفي بعض العلوم، ولم يعيشوا في جو العلم، ولا طلبوه من شيوخه، ولم يتقنوا أدواته، ولم يملكوا مفاتيحه، ومع هذا أفتوا في أعوص المسائل، وحكموا في أغمض القضايا، واعترضوا على أكابر العلماء، وطعنوا في أئمة المذاهب، وساووا رؤوسهم برؤوس الصحابة والتابعين، وقال قائلهم: هم رجال ونحن رجال!

وهذا هو الذي يؤذن بضياع الدين، وخراب الدنيا، كما في الحديث المتفق عليه: «**إنَّ الله لا يقبض العلم ينتزعه انتزاعًا من صدور الناس،**

(١) انظر: روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة (٣٣٨/٢)، نشر مؤسسة الريان، ط٢، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (٥٢).

QaradawiBooks.com

ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتَّى إذا لـــم يبق عالِم، اتخذ النَّاس رؤوسًا جُهَّالًا، فسُئِلوا، فأفتوا بغير علم، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[(١)].

وأشـــدُّ الأمور خطرًا: أن يفتي المرء فيما لا يعلمه ويستيقنه من دين الله، فَيُحَـــرِّم أو يُحلِّل بغير بينة وبرهان من ربـــه، وهنا يكون الإثم على المفتي إذا كان المستفتي مخدوعًا فيه، وإنْ كان عليه أن يتحرَّى ويبحث عمن يستفتيه في دينه، ويعلم منه شرع ربه.

روى أبو هريرة، عن النبي ﷺ: «**مَن أُفتي بغير علم كان إثمه على مَن أفتاه، ومَن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره، فقد خانه**»[(٢)].

وفي عهد النبوَّة أصاب رجلًا مسلمًا جراحة، ثمَّ أصابته جنابة، فأفتاه بعض النَّاس بضرورة أن يغتســـل، فعمل بفتواهم، فتفاقم جرحه، فمات منه. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقـــال منكرًا عليهم: «**قتلـــوه، قتلهم الله! هلَّا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء الْعِيِّ السؤال، إنَّما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه**»[(٣)].

فأخبر النبي ﷺ أنَّهم قتلوه، ودعا عليهم بقوله: «**قتلهم الله!**» فدلّنا هذا على أنَّ من الفتاوى ما يقتـــل، وليس كلُّ القتل قتـــلًا ماديًّا، لعلَّ القتل المعنويَّ أشـــد خطرًا من المـــادي، وأخطر منه قتـــل الجماعة، وإزهاق روحها بالفتاوى الجاهلة.

* * *

(١) سبق تخريجه صـ١٣٢.

(٢) رواه أبو داود في العلم (٣٦٥٧)، وابن ماجه في المقدمة (٥٣)، والطحاوي في مشكل الآثار (٤١٠)، والحاكم في العلم (١٢٦/١)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٦٨).

(٣) سبق تخريجه صـ١٣١.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الفصل الخامس

الصوفية والعلم الشرعي

بدأ الإمام الغزالي موسوعته: «إحياء علوم الدين» ـ التي تضمَّنت أربعين كتابًا، شملت: العبادات، والعادات، والمهلكات، والمنجيات، من الأخلاق ـ بكتاب: «العلم»، الذي أفاض فيه، وفصَّل القول، في بيان أقسامه، والمحمود منه والمذموم، وبيان فرض الكفاية من فرض العَيْن منه، كما ظهر لنا فيما سبق.

كما جعل أول «عقبة» يجب على سالك الطريق أن يجتازها هي: «عقبة العلم»، وذلك في كتابه: «منهاج العابدين» الذي صنَّفه قبل موته بقليل، ليرسم فيه معالم الطريق إلى الله بإيجاز.

وكأنَّ الغزالي بهذا الصنيع يردُّ على المنحرفين من المتصوِّفة الذين استخفّوا بقيمة العلم، وزعموا أنَّه «حجاب» بين العبد وربه، وأُثِرت عنهم في ذلك عبارات تمجها الأسماع، وتنفر منها الطباع، لا يقبلها دليل الشرع، ولا برهان العقل.

ولم يكتف الغزالي رحمه الله بهذا، بل نجده كثيرًا في شرحه للأخلاق الربَّانية والمقامات الإيمانية، يُبيِّن أهمية العلم لتحقيقها والمحافظة عليها، فالعلم أحدُ المكونات أو العناصر الأساسية الثلاثة، التي يعبر عنها بأنَّها: علم، وحال، وعمل.

QaradawiBooks.com

فالعلم يمثِّل الجانب المعرفي والإدراكي، وهو المقدِّمة والأساس، والحال يمثل الجانب الوجداني والانفعالي، والعمل يمثل الجانب الإرادي والسلوكي.

وإلى هذا الترتيب يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤].

وقد ذكرنا فيما سبق تأثير العلم في السلوك، وأنَّه من ثمراته ـ إذا رسخ وتمكن ـ اليقين والمحبة لله، وأنَّه الذي يُعرِّف السالكين إلى الله حقيقة الإخلاص، وآفة الرياء.

بين العلم والمعرفة:

بَيْد أنَّ الغلاة من الصُّوفية يزدرون العلمَ الشرعيَّ، في مقابل الكشف أو الذَّوْق الصوفي.

«وهم يسمُّون صاحب العلم الشرعي: «عالِمًا»، ويسمُّون صاحب الكشف الصُّوفيِّ: «عارفًا»، فـ «العلم» عندهم كسبي استدلالي، و«المعرفة» وهبية ضرورية ـ وهي: العلم اللَّدُنِّي ـ والعلم له الخبر، والمعرفة لها العيان.

ومثال هذا: أنَّك إذا رأيت في حومة ثلج ثقبًا خاليًا، استدللتَ به على أنَّ تحته حيوانًا يتنفس، فهذا علم. فإذا حفرته وشاهدتَ الحيوان، فهذه معرفة.

ولا مشاحة في الاصطلاح، فلكلِّ طائفة أن تصطلح على ما تتفاهم به، بشرط أن تتَّضح المدلولات، وتتحدَّد المفاهيم، ولكنَّ الخطر هنا هو تحقير «العالِم» وتقديس «العارِف»، أو اعتبار ما يجيء من طريق المعرفة

QaradawiBooks.com

معصومًا، وما يجيء من طريق العلم مظنونًا أو مشكوكًا فيه أو منقوصًا، وإنْ كان مستمَدًّا من الكتاب والسُّنَّة.

وذلك كقول بعض المنحرفين: العالِم يُسعطك الخل والخردل، والعارِف ينشقك المسك والعنبر!

قال: ومعنى هذا: أنَّك مع العالِم في تعب، ومع العارِف في راحة، العارف يبسط عذر العوالم والخلائق، والعالِم يلوم. وقد قيل: مَن نظر إلى الخلق بعين «العلم» مقتهم، ومَن نظر إليهم بعين «المعرفة» عذرهم!!

يقول الإمام ابن القيم معقبًا على هذا الكلام الخطير:

«فانظر ما تضمَّنه هذا الكلام ـ الذي ملمسه ناعم، وسُمّه زعاف قاتل ـ من الانحلال عن الدين، ودعوى الراحة من حكم العبودية، والتماس الأعذار لليهود والنصارى وعُبَّاد الأوثان، والظَّلَمة والفجَرة، وأن أحكام الأمر والنهي ـ الواردين على ألسن الرسل ـ للقلوب بمنزلة سعط الخل والخردل، وأنَّ شهود الحقيقة الكونية الشاملة للخلائق، والوقوف عليها، والانقياد لحكمها، بمنزلة تنشيق المسك والعنبر.

فليهن الكُفَّارَ والفُجَّارَ والفُسَّاقَ، انتشاقُ هذا المسك والعنبر إذا شهدوا هذه الحقيقة وانقادوا لحكمها!

ويا رحمة للأبرار المحكمين! لما جاء به الرسول ﷺ من كثرة سعوطهم بالخلِّ والخردل!

فإنَّ قوله ﷺ هذا يجوز، وهذا لا يجوز، وهذا حلال وهذا حرام، وهذا يُرضي الله، وهذا يُسخطه: خل وخردل عند هؤلاء الملاحدة، وإلا فالحقيقة تُشهدك الأمر بخلاف ذلك.

QaradawiBooks.com

ولذلك إذا نظـرت ـ عندهم ـ إلى الخلق بعيـن الحقيقة عذرت الجميع. فتعذر مَن توعَّده الله ورسـوله أعظم الوعيد، وتهدده أعظم التهديد.

ويا لله العجب! إذا كانوا معذورين فـي الحقيقة، فكيف يُعذِّب الله سبحانه المعذورَ، ويُذيقه أشد العذاب؟

وهلَّا كان الغني الرحيم أولى بعذره من هؤلاء؟»[١].

التزام الصوفية الأوائل بالعلم الشرعي:

ولكن هؤلاء المنحرفين لا يمثِّلون التصـوُّف كلَّه، ومن الظلم أن نأخذ الجميع بوزرهم، إنَّما يمثله حقًّا شـيوخه الكبـار الذين أنكروا على هؤلاء هذه الدعاوى العريضة، التي زعموا فيها الاستغناء عن علم الكتاب والسُّنَّة.

ويحسن بنا أن نذكر هنا بعض ما نقله ابن القيم في «مدارج السالكين» عن المعتدلين من أكابر القوم، وأئمة السـلوك، وهو ما نقله القشيري في «رسالته» أيضًا: «قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على مَن اقتفى آثار الرسول ﷺ[٢].

وقال: مَن لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث، لا يُقتدى به في هذا الأمر؛ لأن علمنا مُقيَّد بالكتاب والسُّنَّة[٣].

وقال: مذهبنا هذا مُقيَّد بأصول الكتاب والسنة[٤].

(١) مدارج السالكين (١٥٨/٣ ـ ١٥٩).
(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٥٧/١٠).
(٣) المصدر السابق (٢٥٥/١٠).
(٤) رواه القشيري في رسالته (٧٩/١).

QaradawiBooks.com

وقال أبو حفص رحمه الله تعالى: مَن لم يزن أفعاله وأحواله في كلِّ وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، فلا يُعد في ديوان الرجال[١].

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى: ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أيامًا، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب، والسُّنَّة[٢].

وقال أبو زيد: عملتُ في المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدت شيئًا أشد عليَّ من العلم ومتابعته[٣].

وقال مرَّة لخادمه: قم بنا إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالصلاح لنزوره، فلما دخلا عليه المسجد تنخع، ثمَّ رمى بها نحو القِبْلة، فرجع فلم يُسلِّم عليه، وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ، فكيف يكون مأمونًا على ما يدَّعيه؟!

وقال: لقد هممتُ أن أسأل الله تعالى أن يكفيني مؤنة النساء، ثمَّ قلت: كيف يجوز لي أن أسأل الله هذا، ولم يسأله رسول الله ﷺ؟ ولم أسأله، ثمَّ إن الله كفاني مؤنة النساء، حتَّى لا أبالي استقبلتني امرأة أو حائط[٤].

وقال: لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات إلى أن يرتفع في الهواء، فلا تغتروا به، حتَّى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وآداب الشريعة[٥]!

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٣٠/١٠).

(٢) رواه القشيري في رسالته (٦١/١).

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٦/١٠).

(٤) رواه القشيري في رسالته (٥٧/١، ٥٨).

(٥) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٤٠/١٠).

QaradawiBooks.com

وقال أحمد بن أبي الحواري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: مَن عمل عملًا بلا اتباع سُنَّة، فباطل عمله»[١].

قال ابن القيم: «وأمَّا الكلمات التي تُروى عن بعضهم: من التزهيد في العلم، والاستغناء عنه، كقول مَن قال: «نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت، وأنتم تأخذونه من حي يموت»!

وقول الآخر وقد قيل له: ألا ترحل حتَّى تسمع من عبد الرزَّاق؟ فقال: ما يصنع بالسماع من عبد الرزَّاق، مَن يسمع مِن الخلاق؟!

وقول الآخر: العلم حجاب بين القلب وبين الله عَزَّ وَجَلَّ!

وقول الآخر: إذا رأيت الصوفي يشتغل بـ «أخبرنا» و«حدَّثنا» فاغسل يدك منه!

وقول الآخر: لنا علم الحُرَق «جمع: حُرقة»، ولكم علم الورق.

ونحو هذا من الكلمات التي أحسن أحوال قائلها: أن يكون جاهلًا يُعذر بجهله، أو شاطحًا معترَفًا بشطحه، وإلا فلولا عبد الرزَّاق وأمثاله، ولولا «أخبرنا» و«حدَّثنا» لما وصل إلى هذا وأمثاله شيء من الإسلام.

ومَن أحالك على غير «أخبرنا» و«حدَّثنا» فقد أحالك: إما على خيال صوفي، أو قياس فلسفي، أو رأي نفسي! فليس بعد القرآن و«أخبرنا» و«حدَّثنا» إلا شبهات المتكلمين، وآراء المنحرفين، وخيالات المتصوِّفين، وقياس المتفلسفين، ومَن فارق الدليل، ضلَّ عن سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة، سوى الكتاب والسُّنَّة.

(١) الرسالة القشيرية (٦٨/١)، وراجع: مدارج السالكين (٤٣٤/٢، ٤٣٥).

QaradawiBooks.com

وكلُّ طرق لم يصحبها دليل القرآن والسُّـنَّة، فهي من طرق الجحيم، والشيطان الرجيم»[١].

حقيقة العلم اللدُنِّي:

أمَّا «العلم اللدُنِّي» الذي طنطن به بعضهم، وأبدأ فيه وأعاد، وزعم الاستغناء به عن العلم الكسـبي، الذي يتصل بالأدلة والشواهد، فقد قال فيه ابن القيم في شـرح ما جاء في كلام الهروي عنه في «منازل السائرين»:

«العلـم اللدُنِّي هو: العلم الـذي يقذفه الله في القلب بلا سـبب من العبد، ولا استدلال، ولهذا سمي: لَدُنِّيًّا. قال تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، ولكن هذا العلم أخص من غيره، ولذلك أضافه إليه سبحانه، كبيته وناقته وبلده وعبده، ونحو ذلك. فتضمحل العلوم المستندة إلى الأدلة والشـواهد في العلم اللدُنِّي، الحاصل بلا سبب ولا استدلال، هذا مضمون كلامه» «يعني: الهروي صاحب «المنازل».

قال ابن القيم: «ونحن نقول: إنَّ العلم الحاصل بالشواهد والأدلة، هو العلم الحقيقي، وأما ما يُدَّعى حصوله بغير شاهد ولا دليل، فلا وثوق به «وليس بعلم». نعم قد يقوى العلم الحاصل بالشـواهد ويتزايد، بحيث يصير المعلوم كالمشهود، والغائب كالمعايَن، وعلم اليقين كعَيْن اليقين، فيكون الأمر شـعورًا أولًا، ثمَّ تجويزًا، ثمَّ ظنًّا، ثمَّ علمًا، ثمَّ معرفة، ثمَّ علم يقين، ثمَّ حقَّ يقين، ثمَّ عَيْـن يقين، ثمَّ تضمحل كل مرتبة في التي فوقها، بحيث يصير الحكم لها دونها، فهذا حقٌّ.

(١) مدارج السالكين (٢/٤٣٨، ٤٣٩).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وأما دعوى وقوع نوع من العلم بغير سبب من الاستدلال، فليس بصحيح، فإن الله سبحانه ربط التعريفات بأسبابها، كما ربط الكائنات بأسبابها، ولا يحصل لبشر علم إلا بدليل يدله عليه، وقد أيَّد الله سبحانه رسله بأنواع الأدلة والبراهين التي دلَّتهم على أن ما جاؤوا به هو من عند الله، ودلَّت أُممهم على ذلك. وكان معهم أعظم الأدلة والبراهين على أن ما جاءهم هو من عند الله، وكانت براهينهم أدلة وشواهد لهم وللأمم. فالأدلَّة والشواهد التي كانت لهم، ومعهم: أعظم الشواهد والأدلة، والله تعالى شهد بتصديقهم بما أقام عليه من الشواهد، فكل علم لا يستند إلى دليل فدعوى لا دليل عليها، وحكم لا برهان عند قائله. وما كان كذلك لم يكن علمًا، فضلًا عن أن يكون لَدُنِّيًّا.

فالعلم اللدُنِّي: ما قام الدليل الصحيح عليه، أنَّه جاء من عند الله على لسان رسله، وما عداه فلدُنِّي من لُدُن نفس الإنسان، منه بدأ وإليه يعود.

وقد انبثق سدّ العلم اللدُنِّي، ورخص سعره، حتَّى ادَّعت كل طائفة أن علمهم لدُنِّي. وصار مَنْ تكلم في حقائق الإيمان والسلوك وباب الأسماء والصفات بما يسنح له، ويلقيه شيطانه في قلبه، يزعم أنَّ علمه لدُنِّي!! فملاحدة الاتحادية، وزنادقة المنتمين إلى السلوك يقولون: إن علمهم لدُنِّي! وقد صنَّف في العلم اللدُنِّي متهوكو المتكلمين، وزنادقة المتصوِّفين، وجهلة المتفلسفين، وكلٌّ يزعم أن علمه لدُنِّي! وصدقوا وكذبوا، فإن «اللدُنِّي» منسوب إلى «لَدُن» بمعنى: «عند»، فكأنهم قالوا: العلم العندي، ولكن الشأن فيمن هذا العلم من عنده ومن لَدُنه، وقد ذمَّ الله تعالى بأبلغ الذم مَن ينسب إليه ما ليس من عنده كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ

QaradawiBooks.com

﴿يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فكل مَن قال: هذا العلم من عند الله ـ وهو كاذب في هذه النسبة ـ فله نصيب وافر من هذا الذم. وهذا في القرآن كثير، يذم الله سبحانه مَن أضاف إليه ما لا علم به، ومَن قال عليه ما لا يعلم، ولهذا رتَّب سبحانه المحرَّمات أربع مراتب، وجعل أشدها القول عليه بلا علم، فجعله آخر مراتب المحرَّمات التي لا تُباح بحال[١]. بل هي محرَّمة في كل مِلَّة، وعلى لسان كلِّ رسول، فالقائل: إن هذا «علم لَدُنِّي» لما لا يعلم به من عند الله، ولا قام عليه برهان من الله أنَّه من عنده: كاذب مفترٍ على الله، وهو من أظلم الظالمين، وأكذب الكاذبين»[٢].

على أنَّ كثيرًا من الصوفية المتأخرين رفضوا حجية الإلهام.

قال العلَّامة الألوسي في تفسيره عند قصَّة الخضر من سورة الكهف:

«وممن صرَّح بأن الإلهام ليس بحُجَّة من الصوفية: الإمام الشعراني، وقال: قد زلَّ في هذا الباب خلق كثير فضَلُّوا وَأَضَلُّوا، ولنا في ذلك مؤلَّف سميته: «حد الحسام في عنق مَن أطلق إيجاب العمل بالإلهام» وهو مجلد لطيف»[٣].

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

(٢) مدارج السالكين (٣/٣٩٩ ـ ٤٠١).

(٣) روح المعاني للألوسي (٨/٣٤٠)، تحقيق علي عبد الباري عطية، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

QaradawiBooks.com

فمن احتجَّ بالإلهام وحده على حكم شرعي فاحتجاجه مردود عليه[١].

موقفنا من قضية الكشف والإلهام:

وموقفنا من قضية الكشف والإلهام، هو موقف العلماء الربَّانيين من دعاة «الوَسَطية الإسلامية» وهم الذين جمعوا بين النورين: نور العقل ونور القلب، نور العلم ونور الإيمان، نور الفطرة ونور النبوة، واهتدوا بصحيح المنقول وصريح المعقول، ووفَّقوا بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية، وردوا الفروع إلى الأصول، والمتشابهات إلى المحكمات، والظنيات إلى القطعيات، فأثبتوا الإلهام والكشف والتحديث والفراسة والرؤى الصادقة بشروطها وفي حدودها، وأقاموا الوزن بالقسط ولم يُخسروا الميزان، ولم يطغوا فيه، وبهذا أووا من العلم إلى ركن شديد، واعتصموا من الدين بحبل متين: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وقد شرحنا هذا الموقف في بعض كتبنا[٢] مفصَّلًا، ولا بأس أن نلخصه هنا:

إنَّ موقف أهل التوسط والاعتدال من محقِّقي علماء السُّنَّة، هو الذي يُعبِّر بحق عن وَسَطية المنهج الإسلامي، ووَسَطية الأُمة الإسلامية.

فهم لا يغلقون بابًا من أبواب المعرفة والوعي، فتحه الله لبعض الناس، في بعض الأوقات، بجوار البابَيْن الآخرين من أبواب المعرفة، وهما اللَّذان لهما صفة العموم والدوام.

(١) انظر كتابنا: موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى صـ ٧٤ وما بعدها، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٣، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

(٢) كتابنا: موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أعني: باب الحواس، وخصوصًا السمع والبصر، وباب العقل، وقد يُعبَّر عنه في القرآن الكريم بالفؤاد أو القلب، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ويقول ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، فجعل هذه الثلاثة منافذ المعرفة للإنسان: السمع، والأبصار، للمعرفة الحسية، والأفئدة للمعرفة العقلية.

والمعرفة «السمعية» تدخل فيها العلوم النقلية، ومنها: علوم الدين، فهي علوم سمعية، وإن نقلت عن طريق القلم والكتاب.

والمعرفة «البصرية» تدخل فيها العلوم التجريبية؛ لأنَّها تقوم على الملاحظة والتجربة والقياس، وأساسها البصر والمشاهدة.

والمعرفة «الفؤادية» أو «القلبية» يدخل فيها المعرفة العقلية الخالصة، عن طريق النظر والتفكير والاعتبار والاستدلال، كما يمكن أن يدخل فيها المعرفة المباشرة عن طريق البصيرة والحدس والإلهام، وهو ما يسمونه: «المعرفة الرُّوحيَّة».

ذلك أنَّ كلمة «الفؤاد» أو «القلب» ليست مرادفة لكلمة «العقل»، بل هي أعمُّ وأشمل، فقد يراد منها تلك اللطيفة المدركة العاقلة المفكرة، ولذا توصف أحيانًا بالعقل أو الفقه، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦].

وقوله في أهل النار: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقد يُراد من كلمة الفؤاد أو القلب ما يُطلق عليه الآن اسم: «الرُّوح» أو «الضمير» أو «البصيرة»، أو نحو ذلك من الكلمات التي تُعبِّر عن نوع من الوعي المباشـــر دون الأدوات التي يســـتخدمها العقل المنطقي في تحصيل معرفته.

ومهما يكن من تفسيرنا لكلمة «الأفئدة» أو «القلوب» فإنَّ ممَّا لا ريب فيه أن فيها نورًا فطريًّا أودعه الله فيها، يزداد بالإيمان والمجاهدة والتقوى، فيكون كما قال الله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥].

كما أنَّ الكفر والجحود والغفلة واتباع الهـــوى، يعطِّل هذه الأجهزة المعرفية لدى الإنسان، ويخرب صلاحيتها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال عن بعض الكفار الذي نـــزل بهم عقاب الله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

لم يقل العلماء المعتدلون الذين اهتدوا بالكتاب والسُّـــنَّة بسدِّ باب الإلهام والكشـــف ونـــور البصيرة، وإنَّمـــا أرادوا أن يُقيِّـــدوه بالأصول والضوابط التي تمنع دخول الوهم والكذب والغلو فيه.

QaradawiBooks.com

وإذا كان العقليون من قديم حاولوا أن يضبطوا إنتاج العقل بقواعد «المنطق» الذي عرَّفوه بأنه «آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر»، وبهذا يمكن الرجوع إلى هذه القواعد عند الخلاف «وإنْ كان للإسلاميين ملاحظات ومآخذ على هذا العلم مذكورة في مواضعها».

وإذا كان الشرعيون قد وفَّقهم الله لوضع علم «أصول الفقه» لضبط الاستدلال فيما فيه نصَّ، وفيما لا نصَّ فيه، وأسَّسوا بذلك علمًا عظيمًا لم يُعرف مثله في حضارة من الحضارات، وغدا مفخرة من مفاخر التراث الفكري الإسلامي.

إذا كان الأمر كذلك، فكيف يُترك الأمر فوضى في موضوع الكشف والإلهام، وندع الباب مفتوحًا على مصراعيه، لكل مَن هبَّ ودَبَّ، ممن تخيَّل فخال، أو مَن لا يميز بين إلهام الْمَلَك ونفث الشيطان، أو مَن ادَّعى الوصول ولم يرع الأُصول، من كل دجَّال يشتري الدنيا بالدين، ويتبع غير سبيل المؤمنين؟!

هذا ما يراه الربَّانيون من علماء السُّنَّة، فهم لا ينكرون أن يقذف الله في قلب عبد من عباده نورًا يكشف له بعض المستورات والحقائق، ويهديه إلى الصواب في بعض المواقف والمضايق، بدون اكتساب ولا استدلال، بل هبة من الله تعالى، وإلهامًا منه.

ومَن آمن بقدرة الله تعالى على كلِّ شيء، وآمن بالطاقة الرُّوحيَّة الهائلة في الإنسان، وآمن بأثر الإيمان والعبادة والمجاهدة في تفجير هذه الطاقة الكامنة، لم يستبعد أن يقع الكشف والإلهام من الله لبعض عباده المؤمنين الصادقين، في بعض الأحوال والأوقات، تفضلًا منه وكرمًا:

QaradawiBooks.com

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۞ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [آل عمران: ٧٣، ٧٤].

غير مرخصة للطباعة

أثر التقوى والمجاهدة في الهداية والإلهام:

ولا نزاع في أنَّ الإيمان والعبادة والتقوى، ومجاهدة النفس، لها أثرها في تنوير العقل، وهداية القلب، والتوفيق إلى إصابة الحق في الأقوال، والسداد في الأعمال، والخروج من مضايق الاشتباه إلى باحات الوضوح، ومن اضطراب الشك إلى ثبات اليقين.

ولا نزاع كذلك في أن يكشف الله لبعض المتَّقين من عباده من حقائق العلم، وأنوار المعرفة، في فهم كتابه أو سُنَّة نبيه، بمحض الفيض الإلهي والفتح الرباني: ما يلهث كثيرون ليحصلوا عليه بالمذاكرة والتحصيل، فلا يظفرون بما يدانيه، بشرط أن يحصلوا الأدوات الضرورية لفهم العلم.

ولا نزاع كذلك في أن يُوهَب بعض النَّاس من صدق الفراسة وقوتها ما يستطيع به أن يكتشف شخصية المرء يلقاه بنظرة إليه، أو كلمة يسمعها منه، أو يقرأ أفكاره، أو يعرف بعض ما يجول بنفسه.

وهي موهبة فطرية لدى بعض النَّاس تقويها الرياضة والمجاهدة، وتنميها تقوى الله تعالى، ويصقلها الإيمان واليقين بالله تعالى وبالدار الآخرة، حتَّى إن المؤمن لتصدق فراسته، كأنما ينظر بنور الله، وينطق بلسان القَدَر، ويبصر الغيب من وراء ستر رقيق.

ولابن القيِّم هنا كلام جيد في «مدارج السالكين» ينبغي أن يُقرأ ويُراجَع[1].

(١) مدارج السالكين (١/١٤٨ ـ ١٥٠).

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

ابن تيمية لا ينكر مطلق الإلهام الناشئ عن الإيمان والتقوى:

ومن النَّاس مَن يظن أنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية يجحد كل أثر للإيمان والتقوى والمجاهدة الرُّوحيَّة في نفس الإنسان المسلم، فلا تفيده نورًا يبصر به في الظلمات، ولا فرقانًا يميز به بين المتشابهات، ولا هداية تنحل بها العقد والمشكلات، وأن شأن المؤمن العابد التقي المحاسب لنفسه، المراقب لربه، المخلص في عمله ونيته، كشأن العاصي المسرف على نفسه، أو الغافل عن ذكر ربه، الناسي لأمر آخرته، إذا استويا في الذكاء والتحصيل!

وربَّما يؤيد هذا الظن ما قد يلحظه بعضهم من جمود وتزمت في فريق من الحرفيين الذين ينسُبون أنفسهم أو ينسُبهم النَّاس إلى مدرسة ابن تيمية السَّلَفية.

وكثيرًا ما ظُلِم شيخ الإسلام وأصحابه، ونُسِب إليهم من الأفكار والمفاهيم والاتجاهات ما لم يقولوا به، وما يُكذِّبه تراثهم وسيرتهم العلمية والعملية، وما ظُلِموا إلا بسبب هؤلاء المحجوبين المطموسين اليابسين، من زوامل النقل، وأُسارى الرسم والشكل، الذين شُغِلوا بالظاهر عن الباطن، وبالصور عن الحقائق. الذين حُرِموا عمق الحاسة الرُّوحيَّة، ولم يوجهوا عنايتهم لأعمال القلوب، ومقامات الإيمان والإحسان، وتزكية الأنفس، ومجاهدتها في الله، حتَّى يهديها سُبُله، ويذيقها حلاوة الإيمان.

وليس أدلّ على منهج ابن تيمية وموقفه في هذه القضية من نقل كلامه نفسه بنصّه رضي الله عنه.

QaradawiBooks.com

يقول فيما نُقِل في «مجموع فتاواه ورسائله»:

«القلب المعمور بالتقوى إذا رجَّح بمجرد رأيه فهو ترجيح شرعي! قال: فمتى ما وقع عنده وحصل في قلبه ما يظن معه أن هذا الأمر أو هذا الكلام أرضى لله ورسوله، كان هذا ترجيحًا بدليل شرعي، والذين أنكروا كون الإلهام ليس طريقًا إلى الحقائق مطلقًا أخطؤوا، فإذا اجتهد العبد في طاعة الله وتقواه كان ترجيحه لما رجَّح أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة والموهومة، والظواهر والاستصحابات الكثيرة، التي يحتج بها كثير من الخائضين في المذاهب والخلاف وأُصول الفقه.

وقد قال عمر بن الخطاب: اقربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون؛ فإنهم تنجلي لهم أمور صادقة[١].

وقال أبو سليمان الداراني: إنَّ القلوب إذا اجتمعت على التقوى جالت في الملكوت، ورجعت إلى أصحابها بطُرف الفوائد، من غير أن يؤدي إليها عالِم علمًا[٢].

وقد قال النبي ﷺ: «**الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء**»[٣].

ومَن معه نور وبرهان وضياء كيف لا يعرف حقائق الأشياء من فحوى كلام أصحابها؟ ولا سيَّما الأحاديث النبوية، فإنَّه يعرف ذلك معرفة تامة؛ لأنَّه قاصد العمل بها؛ فتتساعد في حقِّه هذه الأشياء مع

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢٠٨/١)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٤/١٠) بنحوه.

(٣) رواه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، وأحمد (٢٢٩٠٢)، عن أبي مالك الأشعري، وهو من أحاديث الأربعين النووية.

QaradawiBooks.com

الامتثال ومحبة الله ورسـوله، حتَّى إنَّ المحبَّ يعرف من فحوى كلام محبوبه مراده منه تلويحًا لا تصريحًا.

والعينُ تعرفُ مـن عينَيْ محدِّثها إن كان من حزبها أو من أعاديها[١]

إنارة العقل مكسوف بطوع هوًى وعقل عاصي الهوى يزداد تنويرَا[٢]

وفي الحديث الصحيح: «**لا يزال عبدي يتقـرَّب إليَّ بالنوافل حتَّى أُحبه، فإذا أحببتُه كنتُ سـمعه الذي يسـمع به، وبصرَه الذي يُبصِرُ به، ويدَه التي يبطشُ بها، ورِجْلَه التي يمشي بها**»[٣].

ومَن كان توفيق الله له كذلك فكيف لا يكون ذا بصيرة نافذة ونفس فعَّالة؟ وإذا كان الإثم والبر في صـدور الخلق له تردد وجولان، فكيف حال مَن الله سـمعه وبصره وهو في قلبه؟ وقد قال ابن مسـعود: الإثمُ حوازُّ القلوب[٤]. وقد قدَّمنا أن الكذب ريبة والصدق طمأنينة، فالحديث الصدق تطمئن إليه النفس، ويطمئن إليه القلب.

وأيضًا فإنَّ الله فطر عباده على الحقِّ، فإذا لم تستَحل الفطرة، شاهدت الأشياء على ما هي عليه، فأنكرت منكرها، وعرفت معروفها. قال عمر: الحقُّ أبلج، لا يخفى على فَطِن.

---

(١) البيت ذكره الماوردي وقال: وأنشـدني بعض أهل الأدب هذه الأبيات، وذكر أنَّها لعلي بن أبي طالب. انظر: أدب الدنيا والدين صـ ٢٦، نشر دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م، وهو في الديوان المنسـوب إليه ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صـ ٢٠٧، جمع عبد العزيز الكرم، ط ١، ١٤٠٩هـ.

(٢) ذكره ابن مالك ولم ينسبه في شـرح التسـهيل (٢٣٨/٢)، تحقيق د. عبد الرحمن السيد، ود. محمد بدوي المختون، نشر دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

(٣) سبق تخريجه صـ ٤٧.

(٤) رواه الطبراني (١٤٩/٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨١٩): رجاله ثقات.

QaradawiBooks.com

فإذا كانت الفطرة مستقيمة على الحقيقة منوَّرة بنور القرآن، تجلَّت لها الأشياء على ما هي عليه في تلك المزايا، وانتفت عنها ظلمات الجهالات، فرأت الأمور عيانًا مع غيبها عن غيرها.

وإذا كان القلب معمورًا بالتقوى انجلت له الأمور وانكشفت، بخلاف القلب الخراب المظلم، قال حذيفة بن اليمان: إنَّ في قلب المؤمن سراجًا يزهر[١]، وفي الحديث الصحيح: «**إنَّ الدجَّال مكتوبٌ بين عينيه كافر، يقرؤه كلُّ مؤمنٍ قارئٌ وغيرِ قارئ**»[٢]. فدلَّ على أن المؤمن يتبيَّن له ما لا يتبيَّن لغيره، ولا سيَّما في الفتن.

وكلَّما قوي الإيمان في القلب قوي انكشاف الأمور له، وعرف حقائقها من بواطلها، وكلَّما ضعف الإيمان ضعف الكشف، وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم، ولهذا قال بعض السَّلَف في قوله: ﴿**نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ**﴾ [النور: ٣٥]. قال: هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحقِّ وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمع فيها بالأثر كان نورًا على نور. فالإيمان الذي في قلب المؤمن يطابق نور القرآن، فالإلهام القلبي تارة يكون من جنس القول والعلم، والظن أن هذا القول كذب، وأن هذا العمل باطل، وهذا أرجح من هذا، أو هذا أصوب.

وفي «الصحيح»، عن النبي ﷺ قال: «**قد كان في الأمم قبلكم مُحدَّثون، فإن يكن في أُمَّتي منهم أحد فعمر**»[٣]، والمحدَّث: هو الْمُلهَم

(١) رواه ابن أبي شيبة في الإيمان والرؤيا (٣١٠٤٣).

(٢) رواه مسلم في الفتن (٢٩٣٤)، وأحمد (٢٣٢٧٩)، وفيه: «كاتب وغير كاتب» بدل «قارئ وغير قارئ»، عن حذيفة.

(٣) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٣٩٨)، وأحمد (٢٤٢٨٥)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

الْمُخاطَب في سِـرِّه، وما قال عمر لشيء: إنِّي لأظنه كذا وكذا. إلا كان كما ظن، وكانوا يرون أن السكينة تنطق على قلبه ولسانه.

وأيضًا فـإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشـف للعبـد المؤمن لقوة إيمانه يقينًا وظنًّا، فالأمور الدينية كشفها له أيسر بطريق الأَوْلَى، فإنَّه إلى كشـفها أحوج، فالمؤمن تقع في قلبه أدلَّة على الأشياء لا يمكنه التعبير عنها في الغالب، فإنَّ كلَّ أحد لا يمكنه إبانة المعاني القائمة بقلبه، فإذا تكلم الكاذب بين يدي الصادق عَرَف كذبه مـن فحوى كلامه، فتدخل عليه نخوة الحيـاء الإيماني فتمنعه البيان، ولكن هو في نفسـه قد أخذ حذره منه، وربما لوَّح أو صرَّح به خوفًا من الله، وشـفقة على خلق الله، ليحذروا من روايته أو العمل به.

وكثير من أهل الإيمان والكشـف يُلْقِي الله في قلبـه أن هذا الطعام حرام، وأنَّ هذا الرجل كافر، أو فاسق، أو ديوث، أو لوطي، أو خمَّار، أو مغن، أو كاذب، من غير دليل ظاهر، بل بما يُلقِي الله في قلبه.

وكذلك بالعكس، يُلقِي في قلبه محبة لشخص، وأنَّه من أولياء الله، وأنَّ هذا الرجل صالـح، وهذا الطعام حلال، وهـذا القول صدق، فهذا وأمثاله لا يجوز أن يُستبعد في حقِّ أولياء الله المؤمنين المتَّقين.

وقصَّة الخضر مع موسـى هي من هذا الباب، وأنَّ الخضر علم هذه الأحوال المعيَّنة بما أطلعه الله عليه، وهذا باب واسـع يطول بسطه، قد نبهنا فيه على نكت شريفة تطلعك على ما وراءها»[1] اهـ.

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٤٢/٢ ـ ٤٧).

QaradawiBooks.com

وما قاله شيخ الإسلام هنا، أكَّده وأيَّده تلميذه المحقِّق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى، في عدد من كتبه، وخصوصًا في كتابه الشهير: «مدارج السالكين».

شرط الاعتبار بالكشف والإلهام والرؤيا:

كما لا نزاع في الإلهام والكشف في باب الكرامات والخوارق التي يُكرم الله بها بعض أوليائه المتَّقين، فيُقرِّب لهم البعيد، أو يُكثِّر على أيديهم القليل، أو يكشف لهم بعض المستور من غيوب المستقبل، أو مكنونات الصدور، أو خفايا الأمور، أو يُذلِّل لهم بعض الصعاب، بغير الطريق المعتاد، إلى غير ذلك ممَّا كثُرت فيه الحكايات، وتناقلته الروايات، ممَّا لا يخلو بعضه من صحة وثبوت، وما لا يسلم بعضه أيضًا من مبالغة أو اختلاق.

ولكن المبدأ مُسلَّم به وبنتائجه بشرطه، وهو ألا يخرم قاعدة دينية ثابتة، ولا حكمًا شرعيًّا متفقًا عليه.

وهو ما بيَّنه وفصَّله بأدلته وأمثلته الإمام الشاطبي في كتاب المقاصد من «الموافقات»، فليُرجع إليه.

فقد بيَّن أن ما يخرم قاعدة شرعية، أو حكمًا شرعيًّا ليس بحقٍّ في نفسه، بل هو إمَّا خيال، أو وهم، وإمَّا من إلقاء الشيطان، وقد يخالطه ما هو حقٌّ وقد لا يخالطه، وجميع ذلك لا يصلح اعتباره، من جهة معارضته لما هو ثابت مشروع، فإنَّ التشريع الذي جاء به رسول الله ﷺ عام لا خاص، لا ينخرم أصله، ولا ينكسر له اطراد، ولا يُستثنى من الدخول تحت حكمه مُكلَّف.

QaradawiBooks.com

وإذا كان كذلك فكلُّ ما جاء من هذا القبيل الذي نحن بصدده مضادًّا لما تمهد في الشريعة، فهو فاسد باطل.

قال الشاطبي: «ومن أمثلة ذلك: مسألة سُئِل عنها ابن رشد في حاكم شهد عنده عدلان مشهوران بالعدالة في أمر، فرأى الحاكم في منامه أن النبي ﷺ قال له: لا تحكم بهذه الشهادة فإنَّها باطل. فمثل هذا من الرؤيا لا معتبر بها في أمر ولا نهي، ولا بشارة، ولا نذارة؛ لأنها تخرم قاعدة من قواعد الشريعة، وكذلك سائر ما يأتي من هذا النوع. وما رُوِيَ أنَّ أبا بكر رضي الله عنه أنفذ وصية رجل بعد موته برؤيا رُئِيَتْ[1]، فهي قضية عَيْن لا تقدح في القواعد الكلية لاحتمالها، فلعل الورثة رضوا بذلك، فلا يلزم منها خرم أصل.

وعلى هذا لو حصلت له مكاشفة بأن هذا الماء المعيَّن مغصوب أو نجس، أو أن هذا الشاهد كاذب، أو أن المال لزيد وقد تحصَّل بالحُجَّة لعمرو، أو ما أشبه ذلك، فلا يصحُّ له العمل على وفق ذلك ما لم يتعين سبب ظاهر، فلا يجوز له الانتقال إلى التيمم، ولا ترك قبول الشاهد، ولا الشهادة[2] بالمال لزيد على حال. فإن الظواهر قد تعيَّن فيها بحكم الشريعة أمر آخر، فلا يتركها اعتمادًا على مجرد المكاشفة أو الفراسة، كما لا يعتمد فيها على الرؤيا النومية، ولو جاز ذلك لجاز نقض الأحكام بها، وإن ترتبت في الظاهر موجباتها، وهذا غير صحيح بحال. فكذا ما نحن فيه.

(١) رواه الطبراني (٧٠/٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٧٨٤): رواه الطبراني، وبنت ثابت بن قيس لم أعرفها، وبقية رجاله رجال الصحيح، والظاهر أنَّ بنت ثابت بن قيس صحابية، فإنها قالت: سمعت أبي. والله أعلم.

(٢) لعلَّها: ولا الحكم.

QaradawiBooks.com

وقد جاء في «الصحيح»: «**إنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحُجَّتِه من بعض، فأحكم له على نحو ما أسمع منه...**» الحديث[١]. فقيَّد الحكم بمقتضى ما يسمع وترك ما وراء ذلك. وقد كان كثير من الأحكام التي تجري على يديه يطلع على أصلها وما فيها من حقٍّ وباطل، ولكنه ﷺ لم يحكم إلا وفق ما سمع، لا على وفق ما علم، وهو أصل في منع الحاكم أن يحكم بعلمه»[٢].

وقد كان ﷺ يعلم من دخائل المنافقين وبواطن كفرهم ما يعلم، ولكنَّه لم يعاملهم وفقًا لما كشف الله له من بواطنهم، بل عاملهم حسب ظواهرهم، وأجرى عليهم أحكام الإسلام، ومنحهم حقوق المسلمين في الحياة وبعد الممات.

وبهذا ردَّ على مَن أراد من الصحابة أن يعاملهم معاملة الكفار المجاهرين، فقال: «**أخشى أن يتحدَّث النَّاس أن محمدًا يقتل أصحابه**»[٣]!

وهكذا أُمِرنا أن نحكم بالظاهر، والله يتولَّى السرائر، ولم نؤمر أن نشق عن قلوب الناس[٤].

قصة موسى والخضر:

وخلافنا إنَّما هو مع الغلاة من الصوفية الذين اعتبروا كشفهم وإلهامهم

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٨٠)، ومسلم في الأقضية (١٧١٣)، عن أم سلمة.
(٢) الموافقات (٢٦٦/٢، ٢٦٧)، تحقيق الشيخ عبد الله دراز، نشر دار المعرفة، بيروت.
(٣) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٩٠٥)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٣)، عن جابر بن عبد الله.
(٤) انظر كتابنا: موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى صـ ٢٥ ـ ٣٨.

QaradawiBooks.com

مصدرًا للأحكام الشرعية، فيحلُّون على أساسه وحده ويحرِّمون!

ويأخذون من قصَّة موسى والخضر: أنَّ العلم اللدُنِّي مقدَّم على العلم الشرعي، وأنَّ هناك «شـريعة» يعلمها الفقهاء، و«حقيقة» يعرفها الأولياء، وأنَّ الحقيقة مقدَّمة على الشريعة، فالشريعة للعوامِّ والحقيقة للخواصِّ، ويستدلُّون على هذه التفرقة بهذه القصـة، التي ذكرها الله في سـورة الكهف؛ فموسـى ـ في نظرهم ـ كان ينظر بعين الشـريعة فأنكر خرق السفينة، وقَتْل الغلام بغير جناية، وإقامة الجدار لقوم لا يستحقُّون إكرامًا ولا معونة.

وأمَّا الخضر فكان ينظر بعين الحقيقة؛ ولهذا بيَّن لموسى ما وراء كل أمر من هذه الأمور الثلاثة من أسرار وغيوب، فسلَّم موسى للخضر؛ لأن موسى لم يكن معه إلا علم الظاهر، علم الشريعة، والخضر كان معه علم الباطن، وهو علم الحقيقة!

والعلم الذي عند الخضر لم يأت نتيجة تعلُّم ولا اكتسـاب، إنَّما هو علم وهبي من لَدُن الله مباشرة وبلا واسطة، ويسـمونه: «العلم اللدُنِّي» أخذًا من قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

ومن هنـا جاء عن بعـض المتصوِّفة احتقارهم لعلم الشـرع، الذي يُعرف من النصوص، ويُعلم بالشـواهد والأدلة، ويُطلـب من العلماء، ويُروَى بالأسانيد، ويسمونه: «علم الورق».

وإنَّما يعنيهم علم «الباطن» أو «الحقيقـة» أو «العلم اللدُنِّي» كما يسمونه، علم الخضر لا علم موسى، علم «أصحاب الأذواق»، لا علم «أصحاب الأوراق»، علم الصوفية، لا علم المحدِّثين والفقهاء.

QaradawiBooks.com

بل قال بعضهم في جراءة عجيبة: إنَّ العلم حجاب بين صاحبه وبين الله جَلَّ جَلَالُهُ!

ولا ريب أنَّ هذا من الجهل والعُجْب، والغرور، والشرود عن سواء الصراط، الذي سار عليه رسول الله ﷺ وأصحابه الغر الميامين. والتابعون لهم بإحسان، بل هو الذي سار عليه شيوخ الصوفية الأوائل أنفسهم، وربَّوا عليه مريديهم، وشدَّدوا في ذلك، ولم يتهاونوا فيه.

وقد بيَّن الإمام الشاطبي في «الموافقات» أنَّ من خصائص الشريعة: عمومها لكل المكلَّفين في كل الأوضاع والأحوال.

فلا يخرج عنها وليّ ولا غيره بدعوى الكشف أو غيره، وأنَّ العوائد الجارية ضرورية الاعتبار شرعًا، فليس الاطلاع على المغيبات، ولا الكشف الصحيح بالذي يمنع جريانها على مقتضى الأحكام العادية. والقدوة في ذلك رسول الله ﷺ، ثمَّ ما جرى عليه السلف الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ثم تعرَّض لقصَّة «الخضر» التي يحتج بها قوم على جواز الخروج عن ظاهر الشريعة لمن سمّوهم: الأولياء، أو أهل الكشف، وقال فيها: «وأمَّا قصة الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ وقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢]، فيظهر به أنَّه نبي، وذهب إليه جماعة من العلماء استدلالًا بهذا القول. ويجوز للنبي أن يحكم بمقتضى الوحي من غير إشكال، وإن سلم فهي قضية عَيْن، ولأمر ما، وليست جارية على شرعنا.

والدليل على ذلك أنَّه لا يجوز في هذه الْمِلَّة لوليّ، ولا لغيره ممن ليس بنبيّ أن يقتل صبيًّا لم يبلغ الْحُلُم، وإن علم أنَّه طُبع كافرًا، وأنه لا يؤمن أبدًا، وأنه إن عاش أرهق أبويه طغيانًا وكفرًا، وإن أُذِن له من عالَم

QaradawiBooks.com

الغيب في ذلك؛ لأن الشـريعة قد قررت الأمر والنهي، وإنَّما الظاهر في تلك القصة أنها وقعت على مقتضى شريعة أُخرى، وعلى مقتضى عتاب موسى عليه السلام وإعلامه أن ثَمَّ علمًا آخر، وقضايا أُخر لا يعلمها هو.

فليس كل ما اطلع عليه الولي من الغيوب يسـوغ له شرعًا أن يعمل عليه، بل هو على ضربين:

أحدهما: ما خالف العمل به ظواهر الشـريعة من غير أن يصح رده إليه، فهذا لا يصح العمل عليه ألبتة.

والثاني: ما لم يخالف العمل به شيئًا من الظواهر، أو إن ظهر منه خلاف فيرجـع بالنظر الصحيح إليها، فهذا يسـوغ العمل عليه. وقد تقدَّم بيانه.

فإذا تقرَّر هذا الطريق فهو الصواب، وعليـه يُربِّي المربي، وبه يُعلِّق همم السالكين، تأسيًا بسيد المتبوعين رسـول الله ﷺ، وهو أقرب إلى الخروج عن مقتضى الحظوظ، وأولى برسوخ القدم، وأحرى بأن يُتابَع عليه صاحبه، ويُقتدَى به فيه، والله أعلم»[1].

وقبل الشاطبي بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية بالأدلة: الغلط الذي وقع لأولئك القوم في الاحتجاج بقصة موسى والخضر على مخالفة الشريعة، مجتهدًا أن يرد ما فعله الخضر إلى الشريعة.

ومما ذكره: أن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثًا إلى الخضر، ولا أوجب الله على الخضر متابعتـه وطاعته، بل قد ثبت فـي «الصحيحين»: «**أنَّ الخضر قال له: يا موسى؛ إنِّي على علم من علم الله علَّمنيه الله لا تعلمه،**

(١) الموافقات (٢/٢٩٦، ٢٩٧).

QaradawiBooks.com

وأنت على علـــم من علم الله علَّمكـــه الله لا أعلمـــه»[١]. وذلك أن دعوة موسى كانت خاصَّة.

وقد ثبت في «الصحاح» مـــن غير وجه عن النبـــي ﷺ أنَّه قال فيما فضَّله الله به على الأنبياء قال: «**كان النبي يُبعث إلى قومه خاصَّة، وبُعِثتُ إلى النَّاس عامة**»[٢].

فدعوة محمد ﷺ شـــاملة لجميـــع العباد، ليس لأحـــد الخروج عن متابعته وطاعته، والاستغناء عن رســـالته، كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى وطاعته، مستغنيًا عنه بما علَّمه الله.

وليس لأحد ممن أدركه الإسلام أن يقول لمحمد: إنِّي على علم من علم الله علَّمنيه الله لا تعلمه.

ومَن ســـوَّغ هذا، أو اعتقد أن أحـــدًا من الخلق ـ الزُّهَّـــاد والعُبَّاد أو غيرهم ـ لـــه الخروج عن دعوة محمـــد ﷺ ومتابعته، فهـــو كافر باتفاق المسلمين، ودلائل هذا من الكتاب والسُّنَّة أكثر من أن تُذكر هنا.

وقصَّة الخضر ليس فيها خروج عن الشريعة؛ ولهذا لما بيَّن الخضر لموســـى الأســـباب التي فعل لأجلها ما فعل، وافقه موسى، ولم يختلفا حينئذ. ولو كان ما فعله الخضر مخالفًا لشريعة موسى لما وافقه.

ومثل هذا وأمثاله يقع للمؤمنين بأن يختص أحد الشخصين بالعلم بسبب يبيح له الفعل في الشـــريعة، والآخر لا يعلم ذلك السبب، وإنْ كان قد يكون أفضل من الأول، مثل شخصين دخلا إلى بيت شخص،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٢٧)، ومسلم في الفضائل (٢٣٨٠)، عن ابن عباس.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٢١) عن جابر بن عبد الله.

QaradawiBooks.com

وكان أحدهما يعلم طيب نفسه بالتصرف في منزله، إما بإذن لفظي أو غيره، فيتصرف، وذلك مباح في الشـريعة، والآخر الذي لم يعلم هذا السبب لا يتصرف.

وخرق السفينة كان من هذا الباب، فإنَّ الخضر كان يعلم أن أمامهم ملكًا يأخذ كل سـفينة غصبًا، وكان من المصلحة التي يختارها أصحاب السفينة إذا علموا ذلك، لئلا يأخذها، خير من انتزاعها منهم.

ونظير هذا: حديث الشـاة التي أصابها الموت، فذبحتها امرأة بدون إذن أهلها، فسـألوا النبي ﷺ عنها فأذن لهم في أكلها[١]، ولم يُلزم التي ذبحت بضمـان ما نقصت بالذبح؛ لأنَّـه كان مأذونًا فيـه عُرفًا، والإذن العُرفي، كالإذن اللَّفظي.

ولهذا بايع النبي ﷺ عن عثمان في غيبته بدون استئذانه لفظًا[٢].

ولهذا لما دعاه أبـو طلحة ونفرًا قليـلًا إلى بيته، قـام بجمع أهل المسجد، لما علم من طيب نفس أبي طلحة[٣]، وذلك لما يجعله الله من البركة، وكذلك حديث جابر[٤].

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي رواه البخاري في الذبائح والصيد (٥٥٠١) بلفظ: أنَّ جاريةً لهم كانت ترعى غنمًا بِسَلْع، فأبصرت بشـاةٍ من غنمها مَوْتًا، فكسرت حَجَرًا فذبحتْها. عن ابن عمر.

(٢) إشـارة إلى الحديث الـذي رواه البخـاري في أصحـاب النبـي ﷺ (٣٦٩٨) بلفظ: فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: «هذه يد عثمان». فضرب بها على يده. عن ابن عمر.

(٣) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «آرسلك أبو طلحة؟». فقلت: نعم. قال: «بطعام؟». فقلت: نعم. فقال رسـول الله ﷺ لمن معه: «قومـوا». فانطلق وانطلقت بيـن أيديهم، حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس... رواه البخاري في المناقب (٣٥٧٨)، ومسلم في الأشربة (٢٠٤٠)، عن أنس.

(٤) إشـارة إلى الحديث المتفق عليه: إنَّا يـوم الخندق نحفر، فعرضت كدية شـديدة... فقال: =

QaradawiBooks.com

وقد ثبت أنَّ لحَّامًا دعاه[١] فاستأذنه في شخص يستتبعه[٢]؛ لأنَّه لم يكن يعلم من طيب نفس اللَّحام ما علمه من طيب نفس أبي طلحة وجابر وغيرهما.

وكذلك قتل الغلام، كان من باب دفع الصائل على أبويه، لعلمه بأنه كان يفتنهما عن دينهما، وقتل الصبيان يجوز إذا قاتلوا المسلمين، بل يجوز قتلهم لدفع الصول على الأموال.

فلهذا ثبت في «صحيح مسلم»: أن نجدة الحروري «من رؤوس الخوارج» لما سأل ابن عباس عن قتل الغلمان، قال: إن كنتَ تعلم منهم ما علمه الخضر من الغلام فاقتلهم، وإلا فلا تقتلهم[٣][٤].

ونقل الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» عن الإمام القرطبي كلمة قيمة تعليقًا على قصة موسى والخضر، وما يُستفاد منها من أحكام وعبر، قال فيها: «ولننبه هنا على مغالطتين:

= «قوموا». فقام المهاجرون، والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم... رواه البخاري في المغازي (٤١٠١)، ومسلم في الأشربة (٢٠٣٩).

(١) الداعي رجل من الأنصار، يقال له أبو شعيب، واللحام غلامه. كما في روايات الحديث.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٥٦)، ومسلم في الأشربة (٢٠٣٦)، عن أبي مسعود الأنصاري.

(٣) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٨١٢)، ولم أجده في البخاري، وأورده الحميدي في الجمع بين الصحيحين في أفراد مسلم (١٢٢٢)، وكذا ابن الأثير في جامع الأصول (١٠٩٣)، والمزي في تحفة الأشراف (٦٥٥٧).

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٤٢٥/١١) وما بعدها. وما ذكره عن ابن عباس هنا، فإنَّما قصد به ـ كما قال السبكي ـ المحاجة والإحالة على ما لا يمكن قطعا لطمعه في الاحتجاج بقصة الخضر، وليس مقصوده رضى الله عنه أنَّه إن حصل له ذلك يجوز القتل. انظر: روح المعاني للآلوسي (٣٣٩/٨).

QaradawiBooks.com

الأولى: وقع لبعض الجهلة أنَّ الخضر أفضل من موسى تمسكًا بهذه القصة، وبما اشتملت عليه، وهذا إنَّما يصدر ممن قصر نظره على هذه القصة، ولم ينظر فيما خصَّ الله به موسى عليه السلام من الرسالة، وسماع كلام الله، وإعطائه التوراة فيها علم كل شيء، وأن أنبياء بني إسرائيل كلهم داخلون تحت شريعته، ومخاطَبون بحكم نبوته، حتَّى عيسى، وأدلة ذلك في القرآن كثيرة، ويكفي من ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

قال: والخضر وإنْ كان نبيًّا فليس برسول باتفاق، والرسول أفضل من نبي ليس برسول، ولو تنزلنا على أنَّه رسول، فرسالة موسى أعظم، وأُمَّته أكثر، فهو أفضل، وغاية الخضر أن يكون كواحد من أنبياء بني إسرائيل، وموسى أفضلهم. وإن قلنا: إن الخضر ليس بنبيّ بل وليّ، فالنبيّ أفضل من الوليّ، وهو أمر مقطوع به عقلًا ونقلًا، والصائر إلى خلافه كافر؛ لأنه أمر معلوم من الشرع بالضرورة. قال: وإنَّما كانت قصة الخضر مع موسى امتحانًا لموسى ليعتبر.

الثانية: ذهب قوم من الزنادقة إلى سلوك طريقة تستلزم هدم أحكام الشريعة، فقالوا: إنه يُستفاد من قصة موسى والخضر: أن الأحكام الشرعية العامة تختص بالعامة والأغبياء، وأما الأولياء والخواص، فلا حاجة بهم إلى تلك النصوص، بل إنَّما يُراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويُحكم عليهم بما يغلب على خواطرهم، لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار. فتنجلي لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربَّانية، فيفقون على أسرار الكائنات، ويعلمون الأحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر، فإنَّه استغنى بما ينجلي له من تلك

QaradawiBooks.com

العلوم عما كان عند موسى، ويؤيده الحديث المشهور: «**استفتِ قلبك وإن أفتوك**»[(١)].

قال القرطبي: وهذا القول زندقة وكفر؛ لأنَّه إنكار لما عُلِمَ من الشرائع، فإنَّ الله قد أجرى سُنَّته، وأنفذ كلمته، بأن أحكامه لا تُعلم إلا بواسطة رسله، السفراء بينه وبن خلقه، المبينين لشرائعه وأحكامه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وأمر بطاعتهم في كل ما جاؤوا به، وحثَّ على طاعتهم والتمسك بما أمروا به، فإن فيه الهدى. وقد حصل العلم اليقين وإجماع السَّلَف على ذلك، فمن ادَّعى أن هناك طريقًا أخرى يعرف بها أمره ونهيه، غير الطرق التي جاءت بها الرسل يُستغنى بها عن الرسول، فهو كافر يُقتل ولا يُستتاب.

وقال: وهي دعوى تستلزم إثبات نبوة بعد نبينا؛ لأنَّ مَن قال: إنه يأخذ عن قلبه؛ لأنَّ الذي يقع فيه هو حكم الله، وأنه يعمل بمقتضاه، من غير حاجة منه إلى كتاب ولا سُنَّة، فقد أثبت لنفسه خاصَّةَ النُّبُوَّة، كما قال نبينا ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي**»[(٢)].

---

(١) رواه أحمد (١٨٠٠٦)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف. والدارمي في البيوع (٢٥٣٣)، وحسَّن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٦٨٣)، وحسَّنه النووي في الأربعين، الحديث السابع والعشرون، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٧٣٤): حسن لغيره. عن وابصة بن معبد.

(٢) رواه الطبراني (١٦٦/٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٦/١٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٢٩٣): رواه الطبراني، وفيه عفير بن معدان، وهو ضعيف، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٨٥)، عن أبي أمامة الباهلي.

QaradawiBooks.com

قال: وقد بلغنا عن بعضهم أنَّه قال: أنا لا آخذ عن الموتى، وإنَّما آخذ عن الحي الذي لا يموت! وكذا قال آخر: أنا آخذ عن قلبي عن ربي! وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع، ونسأل الله الهداية والتوفيق[١].

وقال غيره: مَنِ استدل بقصَّة الخضر على أنَّ الوليّ يجوز أن يَطَّلع من خفايا الأمور على ما يخالف الشريعة، ويجوز له فعله، فقد ضلَّ، وليس ما تمسك به صحيحًا، فإن الذي فعله الخضر ليس في شيء منه ما يناقض الشرع، فإن نقض لوح من ألواح السفينة لدفع الظالم عن غصبها، ثمَّ إذا تركها أعيد اللَّوح، جائز شرعًا وعقلًا. ولكن مبادرة موسى بالإنكار بحسب الظاهر. وقد وقع ذلك واضحًا في رواية أبي إسحاق التي أخرجها مسلم ولفظه: فإذا جاء الذي يسخِّرها وجدها منخرقة تجاوزها فأصلحها[٢]. فيُستفاد منه وجوب التأني عن الإنكار في المحتملات. وأما قتله الغلام فلعله كان في تلك الشريعة. وأما إقامة الجدار فمن باب مقابلة الإساءة بالإحسان»[٣]، والله أعلم.

ومن هنا، تبيَّن لنا أنَّ العلم الشرعي لا يستغني عنه أحد، ولا يخرج عن حكمه أحد، أيًّا كانت منزلته في دين الله أو في دنيا الناس.

فاللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علَّمتنا، وزدنا علمًا ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

* * *

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢١٧/٦) وما بعدها، تحقيق محيي الدين ديب ميستو وآخرين، نشر دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

(٢) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٨٠)، عن أبي بن كعب.

(٣) فتح الباري (٢٢١/١، ٢٢٢)، تحقيق محب الدين الخطيب، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

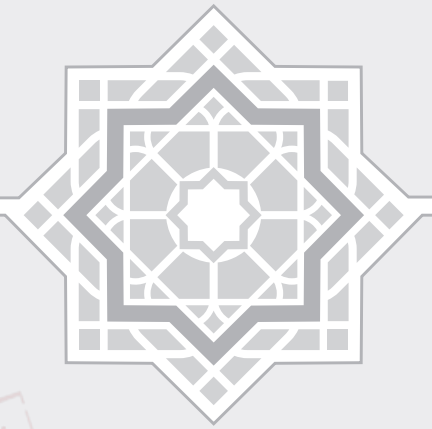

الفهارس العامة

- فهـرس الآيات القرآنيـة الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشـريفة.
- فهرس الموضوعات.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾	٥	٣٧
سورة البقرة		
﴿ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾	٤	١١٢
﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾	٣٢	٨٧، ١٨٥
﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾	٣٣	٨٧
﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾	٣٧	٨٧
﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ ﴾	٤٤	٨١، ١٤٣
﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾	٦٠	٥١
﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾	٧٣	٨١
﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا ﴾	٧٩	١٦٣
﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾	١٠٢	١٣٥
﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾	١٠٥	٥٩
﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ ﴾	١١١	٨٢

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾	١١٥	٤٢
﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا ﴾	١٥١	١٤٦
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ ﴾	١٥٩، ١٦٠	١٤٩
﴿ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾	١٦٤	٨١
﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ ﴾	١٧٠، ١٧١	١٣٩
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾	١٧٤، ١٧٥	١٥١
﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾	١٨٥	٤٦
﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً ﴾	٢٠١	٩٤
﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾	٢١٩	٨١
﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾	٢٣٠	٨٥
﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾	٢٣٨، ٢٣٩	٤٥
﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ ﴾	٢٤٧	٨٩
﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ ﴾	٢٦٠	١١٥
﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾	٢٨٣	١٥١
﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا ﴾	٢٨٦	٤٦
سورة آل عمران		
﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ ﴾	٨، ٩	٣٤
﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾	١٨	٨٥
﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ ﴾	٣١	١١٦
﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾	٤٨	٨٩

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾	٦٤	٣٨
﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾	٧٣، ٧٤	١٦٨
﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾	٧٨	١٦٢
﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾	٧٩	١٤٥
﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾	١٠١	١٦٤
﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾	١٠٤	١٥٠
﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾	١٦٤	٢٤، ٦٠
﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾	١٨٧	١٥١
سورة النساء		
﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ﴾	١٠٢	٤٤
﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾	١١٣	٨٩
﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾	١٥٧، ١٥٨	٨٤
﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾	٦	٤٦
سورة المائدة		
﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾	٢٧	٩٨
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾	٨٧، ٨٨	٥١
سورة الأنعام		
﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾	١٤	٣٩
﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾	٧٥	١١٢
﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾	٨٣	٨٨

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾	٩٣	١٦٣
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾	٩٧	٨٦، ١١٢
﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾	١١٤	٣٩
﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾	١٢٤	١٨٤
﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾	١٦٢، ١٦٣	٣٩
﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾	١٦٤	٣٩
سورة الأعراف		
﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾	٣١، ٣٢	٥١
﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ ﴾	٣٣	١٦٣
﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا ﴾	٣٨	١٣٩
﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾	٥٩	٣٧
﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾	١٤٤	١٨٣
﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا ﴾	١٥٧	٤٦
﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾	١٧٥، ١٧٦	١٤٢
﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ ﴾	١٧٩	٨٣، ١٦٥، ١٦٦
﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾	١٧٩	١٦٥
سورة التوبة		
﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾	٤٠	٦٩
﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِي ٱلدِّينِ ﴾	١٢٢	٤، ١٢٠، ١٣١، ١٣٦، ١٤٧

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة يونس		
﴿ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾	٢٤	٨١
﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ﴾	٣٢	١٤١
سورة هود		
﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾	٧	٤٠
﴿ قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾	٣٢ ـ ٣٤	٨٧
﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ ﴾	١١٤	٤٤
سورة يوسف		
﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾	١٤	٨٨
﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾	٥٥	٨٨
﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾	١٠٨	٨٠
سورة الرعد		
﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾	٢	١١٢
سورة الحجر		
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾	٩	٥٩
﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾	٩٩	٤٥
سورة النحل		
﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾	٣٦	٣٨
﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾	٤٣	١٣١

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾	٧٨	١١٩، ١٦٥
﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ ﴾	٩٧	٣٣
﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾	١١٤	٥١
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾	١٢٨	٢٥
سورة الإسراء		
﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ﴾	١	١١٥
﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ ﴾	٣٦	٨٣، ١٦٥
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ﴾	١٠٧ ـ ١٠٩	٩٦
سورة الكهف		
﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ﴾	٦٢	١٢١
﴿ وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴾	٦٥	١٧٧
﴿ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾	٦٦	٨٨، ١٢١
﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۞ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴾	٦٧ ـ ٧٠	١٢٢
﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴾	٦٧	٨٨، ١٢٢
﴿ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴾	٦٨	٨٨، ١٢٢
﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴾	٦٩	٨٨، ١٢٢
﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴾	٧٠	٨٨، ١٢٢
﴿ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ﴾	٨٢	١٧٨
﴿ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴾	٩٨	٩٦
﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾	١١٠	٤٠، ٩٨

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة مريم		
﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾	٤٣	٨٧
سورة طه		
﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾	١١٠	١٥١
﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾	١١٤	١٢٢
سورة الأنبياء		
﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾	٧	١٠٨، ١٢٠
﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾	٢٤	٨٢
﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾	٨٠	٨٩
سورة الحج		
﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ ﴾	٣١	٣٩
﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾	٤٦	١٦٥
﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾	٥٤	٤، ٩٦، ١٥٦
﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾	٧٥	١٨٤
﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾	٧٨	٤٥
سورة النور		
﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾	٣٥	١٦٦، ١٧٢
﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا ﴾	٣٦، ٣٧	٤٢
سورة الفرقان		
﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾	٥٩	١٣١
﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ﴾	٦٨ ـ ٧٠	٤٨

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة النمل		
﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾	١٥، ١٦	٨٩
﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾	٢٢	٨٩
﴿ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾	٤٠	٨٩، ٩٥
﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾	٦٤	٨٢
﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾	٦٥	١٥٢
﴿ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾	٨٢	١١٢
سورة العنكبوت		
﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾	٤٣	٨٦
﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾	٤٩	٩٧
﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾	٦٩	٣٤
سورة الروم		
﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ﴾	٨	٨١
﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾	٢٢	٨٦
﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾	٥٦	٩٦
سورة السجدة		
﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ﴾	٢٤	١١٢، ١١٣
سورة الأحزاب		
﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ ﴾	٢١	٦١
﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا ﴾	٣٦	١٢٨

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾	٤١، ٤٢	٤٢، ٤٥
﴿ يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾	٦٣	١٥٢
﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾	٦٧، ٦٨	١٣٩
سورة سبأ		
﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾	٦	٩٦
﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾	٤٦	٨١
سورة فاطر		
﴿ زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا ﴾	٨	١٠٢
﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾	١٩ ـ ٢٢	٨٥
﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا ﴾	٢٧، ٢٨	٨٥، ٨٦
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾	٢٩، ٣٠	٣٣
﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ ﴾	٣٢	٤٦
سورة الصافات		
﴿ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾	١٠٢	١٢
سورة ص		
﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾	٢٩	٥٤
سورة الزمر		
﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴾	٩	٤، ٨٥
﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾	١٥	٣٣
﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ ﴾	٥٣	٤٨

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الزخرف		
﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾	٢٣	٨٢
سورة الجاثية		
﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾	٤	١١٢
﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ ﴾	٢٣	١٦٦
﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ ﴾	٢٤	٨٢
﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾	٣٢	٨٢
سورة الأحقاف		
﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ ﴾	٢٦	١٦٦
سورة محمد		
﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾	١٩	٩٧
سورة الذاريات		
﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾	٢٠، ٢١	٥٤
﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾	٥٦	٣٧
سورة النجم		
﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۞ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۞ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾	١١ ـ ١٨	١١٥
﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾	٢٣	٨٤
﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾	٢٨	٨٤
سورة الرحمن		
﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۞ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾	١ ـ ٤	١٤٥
﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾	٧ ـ ٩	١٥

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الحديد		
﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾	١٣	٢٧
سورة المجادلة		
﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ ﴾	٧	٤٢
﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾	١١	٩٦
سورة الصف		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾	٢، ٣	١٤٣
سورة الجمعة		
﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ ﴾	٥	١٣٧
سورة المنافقون		
﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾	١١	٣٤
سورة الملك		
﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾	٢	٤٠، ٩٨
﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾	١٤	٨٤
سورة المدثر		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾	١ ـ ٧	٧٩
﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾	٤٦، ٤٧	٤٥
سورة البروج		
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾	١٠	٤٩

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الغاشية		
﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾	١٧	٨١
سورة الشمس		
﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾	٧	٢٣
﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾	٨	٢٣
﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾	٩	٢٣، ١٢٧
﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾	١٠	٢٣
سورة العلق		
﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾	١	٤، ٧٩، ٩٥
﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾	٢	٤، ٧٩، ٩٥
﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾	٣	٤، ٧٩، ٩٥
﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾	٤	٤، ٧٩، ٩٥
﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾	٥	٤، ٧٩، ٩٥، ١٤٥، ١٦١
سورة البينة		
﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾	٥	٤٠، ٥٤، ١٠٦

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
آرسلك أبو طلحة	١٨١
اتركوا لي صاحبي	٦٧
اتَّقِ المحارم تَكُنْ أعبدَ النَّاس	٥٣
اجتنبوا السبع الموبقات	١٣٥
الإحسان: أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكنْ تراه، فإنَّه يراك	٢٤، ١٢٧، ١٥٢
أخشى أن يتحدَّث النَّاس أن محمدًا يقتل أصحابه	١٧٦
إذا مات ابن آدم انقطع عمله، إلا من ثلاث: صدقة جارية	٩٠، ١٠٠
اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء	٦٦
أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال	٤٣
استفتِ قلبك وإن أفتوك	١٨٤
أفضل الأعمال: إيمان بالله، ثمَّ الجهاد	١٠٥
أفلا أكون عبدًا شكورًا	٦٢
أفلح إنْ صدق أو دخل الجنة إنْ صدق	٤٨
أَلَا إنَّ القوة الرمي	٦٨

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
اللهمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خيرُ مَنْ زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها	٥
اللهمَّ إنَّا نعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشع	٣٤، ١٤٣
اللهم كما حسَّنتَ خَلقي، فحسِّن خُلقي	٧٠
أما كان معهم لهو؟ فإنَّ الأنصار يعجبهم اللَّهو	٦٤
إنَّ ابني ارتحلني ـ أي: اتَّخذني راحلة وركوبة ـ فكرهتُ أن أُعْجِلَه	٦٦
إنَّ ابْنَيَّ هذين ريحانتاي من الدنيا	٦٦
إنَّ أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللِّسان	١٤٤
إنَّ الله جميل يحب الجمال	٧١
إنَّ اللهَ قال: مَنْ عادى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب	٥
إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء	٤٢، ٧٠
إنَّ الله لا يقبض العلم ينتزعه انتزاعًا من صدور الناس	١٣٢، ١٥٣
إنَّ الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلِّمًا ميسرًا	١٤٦
إنَّ اللهَ يحبُّ إذا عمل أحدكم عملًا أن يُتْقِنَه	٧٠
إنَّ اللهَ يحبُّ من العامل إذا عمل أن يحسنَ	٤٢
أنَّ الخضر قال له: يا موسى؛ إنِّي على علم من علم الله علَّمنيه الله	١٧٩
إنَّ الدجَّال مكتوبٌ بين عينيه كافر، يقرؤه كلُّ مؤمنٍ قارئٌ وغيرِ قارئ	١٧٢
إن روح القدس نفث في روعي	١٨٤
إنَّ فاطمة بَضْعة مِنِّي، وأنا أتخوف أن تُفتن في دينها	٦٥
إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة، لتأخذ بيد رسول الله	٦٨
إنَّ لكم رحمًا أبلها ببلالها	٦٦
إن هذا قد اتبعنا، أتأذن له؟	١٨٢

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إنَّ هذه كانت صديقة خديجة، وإن حُسْن العَهْدِ من الإيمان	٦٧
إنا نحفر يوم الخندق... فقال: «قوموا»	١٨١
إنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحُجَّتِه من بعض	١٧٦
إنَّما الأعمال بالنيَّات	١٠٧، ١٠٩
إنَّما أنا أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكنِّي أصوم وأفطر، وأقوم وأنام	٥٠
إنَّما الدنيا لأربعةِ نفرٍ: عبدٌ رزقه الله مالًا وعلمًا؛ فهو يتَّقي فيه ربَّه	١١٠
إنَّه لَيُغانُ على قلبي، وإنِّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرة	٦٣
إيَّاكم والظن؛ فإنَّ الظنَّ أكذب الحديث	٨٣
أيهما أكثر أخذًا للقرآن؟	٩٢
ب	
بلِّغوا عَنِّي ولو آية	١٤٧
بئس مطية الرجل: زعموا	٨٣
ت	
تدمعُ العَيْن ويحزنُ القلب، ولا نقول إلا ما يُرضي الرَّبَّ	٦٥
تعلَّموا العلم، فإنَّ تعلُّمَه لله خشية، وطلبَه عبادة، ومدارستَه تسبيحٌ	٩٧
ح	
حتى يعلم اليهودُ أن في ديننا فُسْحة، وأنِّي بُعِثتُ بحنيفيَّة سَمْحة	٦٤
حذرنا رسول الله من كل منافق عليم اللسان	١٤٤
حقُّ لله على كلِّ مُسلمٍ في كلِّ سبعةِ أيامٍ يومٌ يغسل فيه رأسَه وجَسَدَه	٧١
خ	
خيركم مَنْ تَعلَّمَ القرآنَ وعَلَّمه	١٢٠، ١٤٥

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
د	
الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالِمًا، ومتعلمًا	٩١
ر	
رُبَّ حامل فقه ليس بفقيه	١٣٧
س	
السواك مَطْهَرةٌ للفَمِ، مَرْضَاة للربِّ	٧١
ص	
صَلِّ قائمًا، فإنْ لم تستطعْ فقاعدًا، فإنْ لم تستطعْ فعلى جَنْبٍ	٤٤
الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء	١٧٠
صلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي	٣٢
ط	
طلب العلم فريضة على كل مسلم	١٢٤
ع	
عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعا	٦٧
على خلفائي رحمة الله، قيل: ومَن خلفاؤك؟ قال: الذين يحيون سُنَّتي	١٤٨
عليك بكثرة السجود؛ فإنَّك لا تسجدُ لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة	١٠٣
عليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليه بالنواجذ	٤١
ف	
فأمر النبي ﷺ بأكلها	١٨١
فإنَّ لجسدك عليك حقًّا، وإنَّ لعينك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا	٥٠

غير مرخصة للطباعة

الحديث	رقم الصفحة
فضل العالِم على العابد كفضلي على أدناكم	٩٩، ١٤٦
فضل العلم أحبُّ إليَّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع	١٠٠، ١٠٥
فلينظر بماذا يرجع؟	٦٩
فواللهِ، لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا، خيرٌ لك من حُمْر النَّعَم	١٤٨
ق	
قتلوه، قتلهم الله! هلَّا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء الْعِيِّ السؤال	١٣١، ١٥٤
قد كان في الأمم قبلكم مُحدَّثون، فإن يكن في أُمَّتي منهم أحد فعمر	١٧٢
ك	
كان النبي يُبعث إلى قومه خاصَّة، وبُعِثتُ إلى النَّاس عامة	١٨٠
كان خلقه القرآن	٦٠
كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا	١٠١
ل	
لا أَعْدِلُ بالجهادِ شيئًا. ومَن ذا يطيقه؟	١٠٣
لا، إلا أن تَطَوَّعَ. ثمَّ قال في النهاية بكل صراحة: واللهِ، لا أزيد على هذا	٤٧
لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتَّى يُسأل عن عمره: فيم أفناه؟	١٤٢
لا تعلَّموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا تماروا به السفهاء	١٢٢
لا تلعنْه، فإنَّه يحبُّ اللهَ ورسولَه	٢٢
لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا، فسلَّطه على هلكته في الحقِّ	١٤٦
لا يبلغُ العبدُ أنْ يكون من المتَّقين حتَّى يَدَع ما لا بأسَ به حذرًا لما به البأس	٥، ٥٣

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
لا يعذر الجاهل على الجهل، ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله	١٠٨
لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم	٤٩
اللُّقمة يضعها في فم امرأته	٤٣
لما نزلت على رسول الله ﷺ لله ما في السماوات وما في الأرض	٤٦
لو كنتُ متَّخِذًا من أُمَّتي خليلًا دون ربِّي، لاتَّخذتُ أبا بكر خليلًا	٦٧
ليس من أمتي مَن لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا	٩٢
م	
ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده	٥٤
ما أنزل الله ﷻ داء، إلا أنزل له دواء	٧١
ما تقرَّب إليَّ عبدي بأفضل ممَّا افترضته عليه	٤٧، ٥٣، ١٧١
ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتَّى ظننتُ أنَّه سيورثه	٦٦
ما لي وللدنيا؟ ما مَثَلي ومَثَلُ الدُّنْيا إلا كراكبٍ سارَ في يومٍ صائف	٦٣
ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم	٩١
مثل الذي يُعلِّم النَّاس الخيرَ وينسى نفسَه، كمثلِ الفَتِيلة	١٤٤
مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا	١٣٧
المرء مع مَن أحبَّ	٢٢
مررتُ ليلة أُسرِيَ بي بأقوام تُقرض شفاههم بمقاريض مِن نار	١٤٤
مَن أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد	٤١
مَن أُفتي بغير علم كان إثمه على مَن أفتاه	١٥٤
مَنِ اقتبس علمًا من النجوم، فقد اقتبس شُعْبة من السحر، زاد ما زاد	١٣٥

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
مَنْ تَعلَّم علمًا ممَّا يُبتغى به وجهُ الله تعالى	١٢٢
مَن جاء إلى مسجدي هذا، لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلّمه	٩٢
مَن خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتَّى يرجع	٩٢
مَن دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أُجور مَن تبعه	١٤٨
من دَلَّ على خير، فله مثل أجر فاعله	١٠٠
مَن سقاه الله لبنًا فليقل: اللهمَّ بارك لنا فيه وزدنا منه	٧٠
مَن سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة	٩٠، ٩٩، ١١٩
مَنْ سُئِل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار	١٥٠
مَن عَلِم الرمي ثمَّ تركه، فليس منَّا أو: فقد عصى	٦٨
مَن كان له شعر، فليكرمه	٧١
مَنِ المتكلم آنفًا؟. فقال الرجل: أنا، يا رسول الله	٥٥
مَنْ يأخذُ عنِّي هؤلاء الكلماتِ فيعملُ بهنَّ أو يعلم من يعمل بهنَّ؟	٥
مَن يرد الله به خيرًا؛ يفقهه في الدين	٨٩، ١٣٦
منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا	١٢٣
نـ	
نضر الله امرأً سمع منَّا شيئًا، فبلَّغه كما سمعه، فرُبَّ مبلِّغ أوعى من سامع	١٤٧
هـ	
هذه بتلك	٦٥
هذه يد عثمان	١٨١

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
و	
واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة	١٠٣
وأيكم مثلي؟ إنِّي أبيتُ يطعمني ربِّي ويسقيني	٦٢
وفي بُضْع أحدكم صدقة	٤٣
وما أعددتَ لها؟. قال: واللهِ، ما أعددتُ لها من كثير صلاة ولا صيام	٢٢
ي	
يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثُهما؟	٦٩
يا أيُّها الناس، توبوا إلى ربِّكم؛ فإنِّي أتوب إلى الله ﷻ في اليوم مائة مرة	٦٣
يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه	١٤٣
يحقِر أحدُكم صلاته إلى صلاتهم، وصيامه إلى صيامهم	١٠٢

* * *

نسخة مجانية

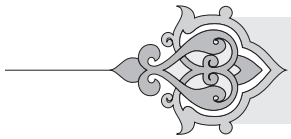

فهرس الموضوعات

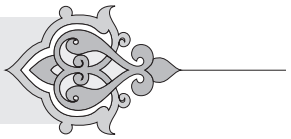

❖ **من الدستور الإلهي للبشرية** ٤

❖ **من مشكاة النبوة الخاتمة** ٥

• **بين يدي الموضوع** ٧

اتصالي بالإمام الغزالي مبكِّرًا ٨

اتصالي بدعوة الإخوان وتوجُّهاتها الرَّبَّانية ومرشدها النُّورانيِّ ٩

أثر أستاذنا البهيِّ الخوليِّ ١١

الشيخان: الأَودن وعبد الحليم محمود ١٢

مواقف عملية معبِّرة ١٤

موقفي النظري من التصوُّف ١٥

فتوى ابن تيمية عن التصوُّف والصوفية ١٦

تقويم ابن القيم للصوفية ١٧

التصوُّف باعتباره تراثًا تربويًّا ١٩

ما ثبطني عن الكتابة في السلوك ٢٠

حاجة النَّاس إلى الحياة الرَّبَّانيَّة والتربية الإيمانيَّة ٢٣

موقف بعض السَّلَفيين من التصوُّف ٢٦

ابن تيمية وابن القيم رجلان ربَّانيَّان ٢٦

تصويف السَّلَفية، وتسليف الصوفية ٢٨

QaradawiBooks.com

منهجنا في هذه الدراسة ٢٩
التوازن بين فقه الأحكام وفقه السلوك ٣٢

• **خصائص الحياة الرَّبَّانيَّة أو الرُّوحيَّة في الإسلام ٣٥**
١ ـ التوحيد ٣٧
٢ ـ الاتباع ٣٩
٣ ـ الامتداد والشمول ٤١
٤ ـ الاستمرار ٤٣
٥ ـ اليُسر والسعة ٤٥
٦ ـ التوازن والاعتدال ٤٩
٧ ـ التنوع ٥٢

• **الرسول هو المثل الأعلى للحياة المتوازنة المتكاملة ٥٧**
نعمتان عُظميان ٥٩
نعمة خلود القرآن ٥٩
نعمة السيرة النبوية ٦٠
المثل الأعلى للحياة المتوازنة ٦١
الرسول العابد الزاهد ٦١
الرسول الإنسان ٦٣
الزوج المثاليّ ٦٤
الأب والجد ٦٥
راعي حقوق الرحم والجوار والصداقة ٦٦
رئيس الدولة ٦٧
الرسول القائد ٦٨
العامل المتوكِّل ٦٩

غير مرخصة للطباعة
نسخة إلكترونية
QaradawiBooks.com

القائم بعمارة الأرض المستمتع بطيباتها ٦٩
كلمة بليغة لابن القيم ٧٢

• العلم بداية الطريق ٧٧

❖ تمـهـــيد ٧٩

❖ الفصل الأول: منزلة العقل والعلم في الإسلام ٨١
فضل العقل في الإسلام ٨١
فضل العلم والعلماء ٨٥
منزلة العلم في حياة الأنبياء ٨٧
السُّنَّة والعلم ٨٩
مكانة العلم لدى سَلَف الأُمّة ٩٣

❖ الفصل الثاني: أثر العلم في الإيمان والسلوك ٩٥
العلم والإيمان في رحاب الإسلام ٩٥
العلم يهدي إلى الإيمان ٩٦
العلم إمام العمل ٩٧
فضل العلم على العبادة ٩٩
العلم دليل السلوك ١٠٦
العلم والمال ١٠٩
العلم يثمر اليقين والمحبة ١١٢

❖ الفصل الثالث: طلب العلم فريضة على كل مسلم ١١٩
الحث على التَّعلُّم ١١٩
العلم من المهد إلى اللَّحد ١٢٣
العلم المفروض طلبه فرض عَيْن ١٢٤

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

كيف يحصِّل المسلم العلم المفروض عليه؟ ١٢٩
فرض الكفاية في العلم ١٣١
العلم المباح ١٣٤
العلم المذموم ١٣٥

❖ **الفصل الرابع: حقوق العلم على أصحابه ١٣٦**
الفقه وحُسْن الفهم ١٣٦
الترقي عن التقليد ١٣٨
العمل بالعلم ١٤٢
تعليم العلم ونشره في الناس ١٤٥
وجوب البيان وتحريم الكتمان ١٤٩
الوقوف عند ما يعلم ١٥١

❖ **الفصل الخامس: الصوفية والعلم الشرعي ١٥٥**
بين العلم والمعرفة ١٥٦
التزام الصوفية الأوائل بالعلم الشرعي ١٥٨
حقيقة العلم اللدُنِّي ١٦١
موقفنا من قضية الكشف والإلهام ١٦٤
أثر التقوى والمجاهدة في الهداية والإلهام ١٦٨
ابن تيمية لا ينكر مطلق الإلهام الناشئ عن الإيمان والتقوى ١٦٩
شرط الاعتبار بالكشف والإلهام والرؤيا ١٧٤
قصة موسى والخضر ١٧٦

• **فهرس الآيات القرآنية الكريمة ١٨٩**

• **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ٢٠١**

• **فهرس الموضوعات ٢٠٩**

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية